كاتيا

بقلم

ليو تولستوى

لطفى سلطان

شخصيات الرواية

كاتيا الكسندروفنا :	احدى فتيات الاسر المحافظة فى روسيا
سيرج ميخايلوفتش :	صديق والد كاتيا وكان يتردد عليها بحكم الجوار
سونيا الكسندروفنا :	شقيقة كاتيا
ماشا :	مربية قامت بتربية اطفال الاسرة
تاتيانا سيمنوفنا :	والدة سيرج ميخايلوفتش
السيدة « ن » :	من سيدات المجتمع
الكونتيسة « ر » :	الراقى فى بطرسبرج
الامير العجوز « ك » :	سفير فرنسى كان يقيم فى بطرسبرج
الماركيز « د » :	شاب ايطالى لعب دورا فى حياة كاتيا
ين	بستانى أبله

الفصل الأول

زهرة تتفتح

زيارة مفاجئة

كنا فى حداد على وفاة والدتنا التى ماتت فى الخريف الماضى .. وقد قضينا الشتاء كله فى الريف انا و «ماشا و « سونيا » (١) ..

وكانت « ماشـــا » صديقة قديمة للاسرة ، اذ كانت مربيتنا وتولت تربيتنا جميعا .. ولســـت أبالغ اذا قلت ان ذكـــرياتى وشعورى نحوها بالمودة قديمان قدم شعورى بوجودى على قيـــد الحياة ..

وكانت « سونيا » شقيقتى الصغرى ..

ومر بنا الشتاء حزينا معتما فى بيتنا القديم ببوكروفســـكى .. وكان الجو شديد البرودة والعواصف حتى أن الجليد جاوز ارتفاع النوافذ ، بحيث ظلت مغطاة بصورة تكاد تكون مســـتمرة بالثلوج ، وبحيث لم نستطع من ناحية أخرى ان نخرج او نتنزه فى أى مكان طيلة الشتاء ..

وكان من النادر ان يأتى لزيارتنا احد .. وحتى هؤلاء الذين كانوا يأتون لزيارتنا كانوا لايشيعون الفرح أو البهجة فى بيتنا ، فقد كانوا يبدون جميعا بوجه حزين ، وكانوا يتكلمون بصوت خفيض كأنهم يخشون أن يوقظوا احدا ، وكانوا يحذرون الضـــحك ويكثرون من التنهدات .. وغالبا ما كانوا يبكون وهم ينظرون الى ، وخاصة حين يرون شقيقتى المسكينة سونيا مرتدية ثوبها الصـــغير الاسود .. كل شىء فى البيت كان لا يزال ينم عن الموت على نحو ما ، وكان رعب الموت وهوله يسودان جو المكان . وقد ظلت غرفة والدتى مغلقة ، وكنت ــ كلما مررت على مقربة منها وانا فى طريقى لأنام ــ

(١) « ماشا » و « سونيا » كانت أسماء تدليل عائلية لمارى وصوفى

احس بألم شـــديد مع اغراء لا يقاوم ، كان يدفعني دائما الى القاء نظرة سريعة على هذه الغرفة المهجورة الباردة

وكنت وقتئذ فى السابعة عشرة ، وكانت والدتى تنوى فى نفس العام الذى ماتت فيه أن ترحل لتقيم بالمدينة لتوبيتى هناك .. فكان فقدها بالنسبة لى خسارة كبيرة .. ولكن يجب على أن أعترف بأننى كنت اشعر فضلا عن الحزن بفراقها ـ وانا الشابة الجميلة كما كنت اسمعهم جميعا يقولون ـ بألم خاص لاضطرارى لتمضية شتاء آخر بالريف فى هذه الوحدة المجدبة . وقبل أن تحل نهـاية هذا الشتاء ، كان شعورى بالاسى والعزلة قد ازداد فى نفسى الى حد أننى لم أعد أترك غرفتى أو افتح « البيانو » او اتناول فى يدى كتابا على الاطلاق

***

وحينما كانت ماشا تدعونى الى الاهتمام بشيء أو بآخر ، فاننى كنت أرد عليها قائلة : « لا اريد .. لا استطيع » فى الوقت الذى كان فيه صوت يتردد فى اعماق نفسى ليسألنى قائـلا « ما فائدة ذلك ؟ لماذا افعل هذا الشيء بينما يذهب أحسن ايام حياتى هباء . لماذا ؟ ولم يكن عندى من جواب على هذا السؤال دائما غير الدموع !

وكان يقال لى اننى ازداد هزالا وقبحا طيلة كل هذا الوقت ، ولكننى لم اكن اعبأ بذلك .. فلماذا ، ومن أجل من ، كان يمكننى ان اجد نفعا فى مقاومة هذا الهزال ؟ .. وكان يبدو لى ان حياتى بأسرها لابد ان تنقضى فى هذه الصحراء .. فى قلب هذه الحسرة وهذا الضيق اللذين لا علاج لهما ، حيث استسلمت لمشـــاعرى الخاصة الى حد اننى لا أحس بالقوة ولا بالرغبة فى ان انتـــزع نفسى منها ..

ولما اوشك الشتاء أن ينتهى ، بدات ماشا تشعر بالقلق من اجلى .. فاستقر رايها على ان تصحبنى فى رحلة الى الخارج ، وهو قرار كان يمكن تحقيقه .. ولكنه كان يتطلب مالا ، فى وقت كنا لا نكاد

نعرف فيه ماذا كان دخلنا من الميراث الذى تركته والدتنا ، وكنا نترقب فى كل يوم مجىء الوصى علينا ، وكان لا بد من مجيئه ليفحص حالة أعمالنا ..

وقد جاء أخيرا خلال شهر مارس ..

وقالت لى ماشا ـ ذات يوم ـ بينما كنت أهيم كالظل بلا عمل فى كل ركن من اركان البيت دون اية فكرة فى راسى او رغبة فى قلبى : « الحمد لله .. هاهو ذا « سيرج ميخايلوفتش » قادم للعشاء » ثم اضافت تقول بعد لحظة صمت : « ويجب ان تتزينى ياصغيرتى كاتيا (١) .. ماذا عساه يظن بك ؟ .. انه يحبكما انتما الاثنتين ! »

وكان سيرج ميخايلوفتش اقرب الجيران الينا .. وكان صديقا للمرحوم والدى على الرغم من انه كان يصغره فى السن بكثير . وفضلا عن ذلك التغيير المستحب الذى أحدثه وصوله فى مشروعاتنا للمستقبل ، باتاحته الفرصة لنا لامكان مغادرة الريف ، فاننى كنت قد اعتدت منذ الطفولة ان احبه واحترمه ..

وربما كانت ماشا تنصحنى بان أتزين لانها كانت تقدر ان تغيرا آخر كان لابد ان يحدث ، وأن سيرج كان الشخص الوحيد ـ من بين كل معارفى ـ الذى كان يؤلمنى أن ابدو أمامه فى صورة غير مستحبة فى يوم من الايام ، لا لأننى كنت أشعر نحوه بتعلق قديم وحسب ـ شأن كل فرد فى البيت ، ابتداء من ماشا وسونيا الى آخر خادم فيه ـ ولكن لان هذا التعلق كان يتخذ طابعا خاصا من عبارة كانت والدتى قد قالتها امامى .. قالت ذات يوم : « انه مثال الزوج الذى أتمناه لك » وفى ذلك الحين ، بدت لى فكرة كهذه غير مستساغة ، بل وغير مرغوب فيها .. اذ أن البطل الذى كنت اتخيله كان يختلف كل الاختلاف ! .. فبطلى انا كان ينبغى أن

---

(١) « كاتيا » تعنى « كاترين »

يكون شابا نحيلا رشيقا .. وكان سيرج ميخايلوفتش على العكس اكبر سنا ، كان طويل القامة قوى البنية .. وعلى قدر ما كنت استطيع أن احكم ، كان ذا مزاج لطيف وطابع محبوب للغاية . ومع ذلك ، كان كلام والدتى قد تغلغل من قبل فى خيالى .. وقبل ست سنوات — وقت أن كنت فى الحادية عشرة — كان يخاطبنى بغير كلفة ،وكان يلعب معى ويدعونى « بالبنفسجة الصغيرة » . ومنذ ذلك الحين ، كنت أسأل نفسى فى خوف عما عسى أن افعل لو بدا له يوما أن يتزوجنى !

وقبيل العشاء الذى اضافت اليه ماشا طبقا من « السبانخ » وآخر من الحلوى ، وصل سيرج ميخايلوفتش ، ونظرت من النافذة فى اللحظة التى كان يقترب فيها من البيت فى عربة صغيرة ... وما كاد يبلغ المنعطف حتى اسرعت بالذهاب الى الصالون ، وذلك حتى لا أظهر اننى انتظرته على الاطلاق ، ولكننى حينما سمعت حركة فى غرفة الانتظار يتبعها رنين صوته المجلجل ووقع خطوات ماشا ، تخلى عنى صبرى وخففت بنفسى الى لقائه !

كان ممسكا بيد ماشا .. وكان يتحدث اليها بصوت مرتفع .. وما كاد يلمحنى حتى توقف عن الكلام ، ونظر الى لبضع ثوان دون أن يحيينى .. فاوقعنى هذا منه فى حيرة شديدة ، وشعرت بالدماء تصعد الى وجنتى !.. ثم قال لى بصوته ذى اللهجة البسيطة الحاسمة ، وهو يترك يد ماشا ويقترب منى : « كاتيا .. هل يمكن ان تكونى انت يا كاتيا ؟.. هل يمكن أن يتغير المرء هكذا ؟.. كم كبرت !.. بالامس كنت بنفسجة .. واليوم وردة متفتحة »

وبيده العريضة ، امسك بيدى وشد عليها بقوة .. الى حد انه كاد أن يؤلمنى ، وظننت انه سيقبلها فانحنيت امامه ، ولكنه اخذها مرة اخرى ونظر مباشرة فى عينى بنظرته المرحة الحازمة

***

كانت قد انقضت ستة أعوام لم أره فيها ، ولاحظت أنه قد

تغير كثيرا .. فقد كبر فى السن ، واسمرت بشرته ، وترك سالفيه ينموان ، وهو أمر كان لايلائمه كثيرا .. ولـكنه احتفظ على الدوام بنفس الخصال البسيطة ، والوجـه المنبسـط الامين ذى الملامح المعبرة ، وبريق عينيه الذى يشع صفاء ، وابتسامته الجميلة التى تشبه ابتسامة طفل

ولم تنقض خمس دقائق حتى تخلى عن موقف الزائر البسيط ، واتخذ حيالنا موقف الضيف الذى يرفع الـكلفة .. بل انه اتخذ نفس هذا الموقف حيال جميع من كانوا فى البيت الذين راحـوا يتسابقون فى تقديم خدماتهم له ، ويظهرون له سرورهم البـالغ لوصوله ..

ولم يتصرف سيرج ميخايلوفتش تصرف الجار الذى يزور منزلا بعد وفاة أم ، معتقدا أن من واجبـه ان يعبر وجهـه عن العطف والمواساة .. وانما بدأ ــ على العكس ــ مرحا كثير الحديث ، ولم يقل كلمة واحدة عن والدتى ، حتى اننى بدات أشعر بأن عـدم اكتراثه هذا غريب .. بل وغير لائق من جانب رجل يرتبط بنـا بصلة وثيقة .. ولـكن سرعان ما ادركت أن هـذا لم يكن عدم اكتراث منه ، وانه كان يضمر فى نفسـه نية تحتم على ان اعترف له بالجميل ..

وفى المساء ، قدمت لنا ماشا العشاء بالصالون ــ فى نفس المكان الذى اعتدنا أن نتناوله فيه ايام والدتنا ــ وجلست انا وسونيا الى جوارها ، واحضر لهـا « جريجوار » العجوز غليـونا قديما لوالدى كان قد وجده .. واخذ يذرع أرض الغرفة ، تماما كما كان يفعل فيما مضى ..

وتوقف جريجوار فجأة وقال لنا :

ــ لشد ما تغير هذا البيت تغيرا مروعا يدعو الى التفكير !

فأجابت ماشا وهى تتنهد وتضع الغطاء فوق وعاء الشاى الذى كان يغلى على الموقد :

ـ نعم ...

ونظرت الى سيرج ميخايلوفتش ، وقد اوشكت أن تنفجر باكية ..

وسألنى سيرج قائلا :

ـ انك تتذكرين والدك دون شك ؟ ! ..

ـ قليلا ..

فقال فى بطء وهو يلقى من فوق رأسى نظرة شاردة ، وقد بدت على وجهه دلائل التفكير :

ـ كم كان يكون طيبا بالنسبة اليك لو كان والدك اليوم لايزال على قيد الحياة !

ثم اضاف يقول فى لهجة اكثر بطئا : « لقد احببته كثيرا ... »

وفى تلك اللحظة ، بدا لى أن عينيه كانتا تلمعان ببريق اخاذ ..

وصاحت ماشا تقول :

ـ وها هو ذا الله قد اخذ والدتنا كذلك !

وفى الحال ، ألقت المنشفة على وعاء الشاى ، ثم أخرجت منديلها واخذت تجهش بالبكاء

وقال سيرج :

ـ نعم .. لقد حدثت تغيرات مروعة فى هذا البيت ..

قال هذا ونظر خلفه ، ثم رفع صوته قائلا : « اعزفى لى شيئا يا كاتيا الكساندروفنا » !

وقد سرنى انه طلب منى هذا الطلب فى الفاظ بسيطة للغاية تنطوى على صداقة آمرة ، فنهضت وذهبت الى جواره ..

فقال سيرج ، وهو يفتح نوتة موسيقية لبيتهوفن : « خذى .. اعزفى لى الحركة البطيئة من هذه (السوناتا) .. »

ثم اضاف قائلا : « ارينى كيف تعزفين » .. وذهب ليشرب قدح الشاى فى ركن من الصالة

ولست ادرى لماذا شعرت بأنه كان من المحال أن ارفض ما طلب ، او أن أتظاهر بالرفض ، بحجة اننى لا اجيد العزف .. بل اننى جلست ـ على العكس ـ الى البيانو فى خضوع ، وبدات اعزف وانا ابذل جهد طاقتى ، بالرغم من اننى كنت خائفة بعض الشىء من تقديره لعزفى ، خاصة واننى كنت اعرف مدى درايته بالموسيقى وتذوقه لها ..

ونقلنى هذا اللحن البطىء الى احاديثنا التى جرت قبل تناول الشاى ، وكاننى اتذكر شيئا بعيدا .. وكان عزفى لابأس به ، وانا واقعة تحت تأثير هذا الشعور ، ولكنه لم يشأ أن يدعنى انتقل الى عزف الحركة الثالثة من « السوناتا »

وقال وهو يقترب منى :

ـ كلا .. انك لن تعزفيها جيدا .. قفى عند هذه المقطوعة الاولى التى لم تكن سيئة ، وارى انك تفهمين الموسيقى ...

وقد غمرنى هذا الاطراء المعتدل بالفرح الى حد أننى شعرت بالدماء تصعد الى وجنتى ..

وكان جديدا على ، ولطيفا جدا بالنسبة الى ، أن يحدثنى صديق للاسرة بطريقة جادة ـ فيما بينى وبينه ـ لا كما لو كان يتحدث الى طفلة ، كما كان يفعل قديما ..

وحدثنى سيرج عن والدى ، فقص على كم كانا دائما على وفاق ، وعاشا معا عيشة لطيفة بينما كنت منهمكة فى لعبى وعاكفة على كتبى المدرسية .. وبدا لى والدى لاول مرة من خلال هذا الحديث ، ذلك الرجل الطيب البسيط الذى لم اكن قد عرفته حتى ذلك الحين . وسألنى أيضا عما احبه ، وما أحب قراءته .. كما سألنى عما كان فى نيتى ان افعل ، وكان خلال ذلك يوجه الى النصح . ولم يعد الى جوارى ذلك الرجل المرح الذى كان يحب المزاح و « المعاكسة » ، بل بدا لى سيرج رجلا جادا صريحا ودودا ، وشعرت نحوه فى نفس الوقت باحترام لا ارادى ممزوجا

بالاستلطاف . وكان هذا الشعور حلوا ولطيفا فى نفسى ، وكنت احس معه ـ اثناء الحديث ـ بتوتركان يشملنى على نحو لاشعورى. وكانت كل كلمة انطق بها تشعرنى بالخوف ، وكنت أتمنى كثيرا أن اكون انا نفسى جديرة بعطفه ، وهو الذى كان الى ذلك الحين لايعطف على الا بوصفى ابنة لوالدى !

وعادت الينا ماشا بعد أن لازمت سونيا حتى استغرقت فى النوم، وشكت الى سيرج من خمولى الذى كان يؤدى دائما الى اننى كنت لا أجد شيئا اقوله

فقال مبتسما ، وهو يهز راسه نحوى فى عتاب :

ـ آه ! .. انها لم تحدثنى اذن عما هو أهم !

فأجبته قائلة :

ـ ماذا كان عندى لاحدثك عنه ؟ .. أو تريد ان أقول لك اننى كنت اتضايق كثيرا .. ولكن هذا الضيق سينتهى ..

وكان يبدو لى الآن حقا أن ماكان بى من الضيق سينتهى ، بل انه كان قد زال بالفعل ولن يعود ... !

واستمر فى حديثه قائلا :

ـ ليس من الصواب الا يعرف المرء كيف يحتمل الوحدة .. أمن الممكن ان تكونى حقا قد اصبحت آنسة ؟

فأجبته قائلة وأنا اضحك :

ـ طبعا .. اننى اعتقد أننى اصبحت كذلك !

ـ كلا ، كلا .. أو على الاقل : انك اصبحت آنسة ماكرة لاتعيش الا ليعجب بها الناس ، وحين تكون على انفراد يتملكها الخمـول ولا يعود يعجبها شيء .. وهى تفعل كل شيء من اجـل المظهـر وحسب ، ولا تفعله لذاته ..

فقلت لمجرد ان أقول شيئا :

ـ ان لديك هنا فكرة حسنة عنى !

فأجاب قائلا بعد لحظة صمت :

ـ كلا .. ان فيك شيئا من والدك ..

واحدثت نظرة سيرج الطيبة اليقظة مرة اخرى سحرها فى نفسى واشاعت فى اضطرابا غريبا ..

وفى تلك اللحظة فقط ، لاحظت ان خلال هذا الوجه الذى كان يبدو مرحا لاول نظرة ، وتحت هذه النظرة التى ينفرد بها وحده والتى يبدو للمرء لاول وهلة انه لا يقرأ فيها الا الصفاء .. لاحظت ان تفكيرا عميقا كان يمتزج فى اعماق نفسه بمسحة من الحزن ، وان ذلك كان يزداد بمرور الوقت شدة ووضوحا !

واستطرد سيرج يقول :

ـ ينبغى الا تتضايقى .. فلديك الموسيقى التى تفهمينها،ولديك الدراسة .. والكتب ، وامامك حياة بأسرها .. وانت الآن فى اللحظة التى ينبغى ان تتأهبى فيها للحياة بحيث لا تجدين مجالا للشكوى منها فى المستقبل .. وان لم تفعلى ذلك ، فبعد عام يكون قد فات الأوان

كان سيرج يحدثنى هكذا على نحو مايفعل الوالد أو العم .. وكنت ادرك انه كان يبذل جهدا مستمرا ليبقى دائما فىمستواى.. وكان هذا يصدمنى بعض الشىء ، وكان يحز فى نفسى أن يعتقد اعتقادا راسخا بأننى ادنى منه ادراكا ومعرفة .. ولكن كان يبدو لى لطيفا من ناحية اخرى ان يعتقد ان من واجبه أن يبذل هذا الجهد فى سبيل توجيهى وارشادى ..

وانقضت بقية السهرة فى حديث بينه وبين ماشا عن الاعمال ..

وقال لى وهو ينهض اخيرا ويقترب منى ، ثم يمسك بيدى :

ـ والآن .. طاب مساؤك ياعزيزتى كاتيا ..

وسألته ماشا قائلة :

ـ متى نراك ؟

فقال وهو لا يزال يمسك بيدى :

ـ فى الربيع .. اننى راحل الان الى «دانيلوفكا» ، حيث توجد أملاكنا الاخرى .. وسأشرف ـ بعض الوقت ـ على العمل هناك ، وادبر ما أستطيع ان أدبره ، ثم أمر بموسكو بعد ذلك .. وفى الصيف يستطيع كل منا أن يرى الاخر ..

ـ ولماذا هذا السفر لوقت طويل ؟

قلت له ذلك وقد آلمنى نبأ سفره .. اذ كنت آمل فى الواقع أن أراه كل يوم ، وشعرت فجأة بصدع شنيع فى قلبى .. ومن المحتمل ان يكون ذلك قد بدا فى عينى ، وفى نبرات صوتى ..

وقال لى سيرج بلهجة بدت لى راكدة وباردة أكثر مما ينبغى :

ـ هيا .. اشغلى نفسك أكثر من هذا ، واطردى الكآبة والسأم ..

ثم أضاف قائلا وهو يفلت يدى دون أن ينظر الى : « سوف أراك مرة اخرى فى الربيع .. »

وفى المدخل ، حيث تبعناه لتوديعه .. أسرع بارتداء معطفه .. ومرة أخرى بدا عليه انه يتحاشى أن ينظر الى .. فقلت فى نفسى : « انه يكلف نفسه بهذا جهدا لا طائل تحته .. فهل من الممكن ان يفكر ـ وهو ينظر الى ـ فى أن يسعدنى ويسبب لى سرورا عظيما؟ انه رجل ممتاز ، وطيب للغاية .. هذا كل مافى الامر »

ومع ذلك ، فقد لبثت انا وماشا وقتا طويلا دون أن ننام ، ونحن نتابع الحديث ، لا عنه وانما عن الكيفية التى سنمضى بها الصيف ، وعن المكان والطريقة التى سنقضى بها الشتاء .. انها مشكلة ضخمة ! لماذا ؟ .. لقد كان يبدو لى فى بساطة ووضوح أن الحياة يجب أن تكون سعيدة حافلة بأسباب السعادة .. وبالنسبة للمستقبل ، كان يستحيل على أن أتصور شيئا آخر غير السعادة ، كما لو كان مقرنا المعتم القديم فى بوكروفسكى قد امتلأ فجأة بالحياة والنور

الفصل الثاني

أشجار الكرز

نشوة الحب

واقبل الربيع .. وتبدد ماكان قد الم بى من الضيق ، لتشيع فى نفسى احزان الربيع الحالمة التى تثيرها الامال المجهولة والرغبات المكبوتة .. ومع ذلك ، لم تعد حياتى كما كانت فى بداية الشتاء ، اذ اصبحت اعنى بسونيا وبالموسيقى والدراسة ، وكنت اذهب الى الحديقة حيث كنت أهيم وقتا طويلا ، طويلا جدا ، وانا وحيدة خلال الممرات ، وكنت أجلس فى بعض الاحيان على مقعد من المقاعد .. والله يعلم ماكنت أفكر فيه وماكنت آمله وأتمناه !

وكنت اسند خدى فى بعض الاحيان الى راحة يدى ، واتكىء على نافذة غرفتى ، وخاصة فى الليالى المقمرة ، وأظل هكذا حتى الصباح .. واحيانا اخرى ، كنت انزل – دون أن تعلم ماشا – الى الحديقة ، وانا ارتدى ثياب النوم ، ثم أفر الى البركة وسط الندى، وقد ذهبت ذات مرة حتى الحقول .. أو كنت أتنزه وحدى الليل بطوله فى ارجاء الحديقة الكبيرة !

والآن ، يصعب على أن اتذكر – أو على الاقل ان افهم – تلك الاحلام التى كانت تراود خيالى وتملؤه فى ذلك الحين .. وحتى لو استطعت ان اتذكرها ، فانه يصعب على أن أصدق أن تلك الاحلام كانت احلامى ، نظرا لشدة غرابتها وتجاوزها حدود حياتى الواقعية !

***

وعاد سيرج ميخايلوفتش من جولته فى آخريات شهر مايو كما وعدنى ..

وجاء لرؤيتنا ذات مساء ، بينما كنا لا نتوقع مجيئه على الاطلاق .. وكنا نجلس يومئذ فى شرفة البيت ونتاهب لتناول

الشاى .. وكانت الحديقة بأسرها قد اكتست ثوبا من الخضرة ، وفى كل موضع فى بوكروفسكى كانت البلابل قد أقامت مساكنها بين اغصان الشجر واوراق النبات . وهنا وهناك ، كانت كتل كثيفة من الزهر ترفع رءوسها ذات الالوان البيضاء والبنفسجية وهى توشك ان تتفتح . وكانت أوراق الاشجار فى الممر الذى تقوم على جانبيه أشجار البلوط تبدو لامعة شفافة تحت أشعة الشمس الغاربة . وكانت الظلال المنعشة تمتد على طول الشرفة ، بينما كان ندى المساء الفزير يغمر الاعشاب . ومن الفناء الذى يقع خلف الحديقة ، كانت تسمع آخر ضوضاء النهار وأصوات الاغنام وهى تعود الى حظيرتها ..

***

وكان « نيكون » ، المجنون المسكين ، يمر – فى تلك اللحظة – أسفل الشرفة وهو يحمل برميلا .. وفجأة ، انبثق سيل من الماء البارد من خرطوم « الرش » ، وانطلق ليرسم دوائر سوداء على الارض التى حرثت حديثا حول سيقان شجر «الدهليا» . وأمامنا فى الشرفة فوق غطاء ناصع البياض ، كان ابريق الشاى يلمع وهو يغلى فوق الموقد ، وقد انبعث منه بريق ساطع ، يحيط به وعاء من المربى وبعض الكعك والحلوى .. وكانت ماشا تغسل أقداح الشاى بيديها البضتين كربة بيت ممتازة . أما أنا ، فكنت جائعة ... فلم أنتظر الشاى ، والتهمت رغيفا بأكمله مدهونا بطبقة كثيفة جدا من القشدة الطازجة .. وكنت أرتدى فى ذلك المساء « بلوزة » من التيل ذات أكمام مفتوحة بعض الشىء ، وأغطى رأسى بمنديل كنت الف به شعرى المبتل ..

وكانت ماشا أول من لمحت سيرج من خلال النافذة ، فصاحت تقول :

– آه ! هذا سيرج ميخايلوفتش .. لقد كنا نتحدث عنك منذ لحظات ..

فنهضت لأذهب لابدال ملابسى ، ولكنه فاجأنى فى نفس اللحظة التى كنت اتجه فيها نحو الباب ، وقال وهو ينظر مبتسما الى راسى والى المنديل الذى كان يغطيه :

ـ هيا ياكاتيا .. ليست هنـاك رسـميات فى الريف ، وانك لا تلتزمين مثل هذا التشدد امام جريجوار ، واريد أن أكون مثله بالنسبة اليك ...

ولكن .. كان يبدو لى واضحا ان سيرج لم يكن ينظر الى كما يفعل جريجوار ، وقد حيرنى ذلك واشاع فى نفسى الاضطراب فاجبته قائلة وانا ابتعد :

ـ سأعود فى الحال

فصاح قائلا وهو يتتبع خطاى :

ـ اى ضرر فى ذلك ؟ .. انك تبدين هكذا كفلاحة شابة

وقلت فى نفسى ، وأنا أصعد الدرج مسرعة لابدل ملابسى :

ـ لشد ماكانت غريبة نظرته الى ! واخيرا .. نحمد الله على انه قد اتى وسنكون اكثر مرحا..

والقيت على نفسى نظرة فى المرآة ، ثم انطلقت انزل فى سرعة وقد تملكنى السرور . وبلغت الشرفة وأنا لاهثة الانفاس دون أن اخفى شغفى ..

***

كان سيرج جالسا الى جوار المائدة يتحـدث الى ماشـا عن الاعمال . وحين لمحنى ، القى الى بابتسامة خفيفة ، ثم تابع الحديث .. وكانت اعمالنا ـ على حد قوله ـ فى حالة مرضية للغاية . ولم يعد أمامنا الان الا ان نقضى الصيف فى الريف ، ثم يكون فى وسعنا ان نرحل بعد ذلك الى مدينة بطرسبرج أو الخارج لتعليم سونيا وقالت ماشا :

ـ كم يكون جميلا لو اتيت معنا الى الخارج ، فاننا اذا رحلنا وحدنا فسنكون كأننا فى غابة ..

فأجاب وهو يمزج بين الجد والهزل :

ـ آه !.. ليت الله يمكنني من ان اطوف معكن حول العالم !

فقلت حينئذ :

ـ ليكن ذلك .. هيا ! لندر معا حول العالم !

فهز راسه مبتسما ثم قال :

ـ ووالدتي ؟ ... واعمالي ؟ ... هيا ! دعينا من هذا وقصي على كيف قضيت الوقت .. ايمكن ان تكوني قد اكتأبت ايضا ؟

وقصصت على سيرج انني عرفت بدونه أن أشغل نفسي ، وألا اتضايق ، واكدت له ماشا ذلك .. فأثنى على ووجه الى كلمات ونظرات مشجعة وكأنني طفلة ، وكان له فعلا الحق فى ذلك . وبدا لى من المناسب أن اخبره تفصيلا وبصراحة تامة بكل مافعلته من خير، واعترفت له بكل ماكان يمكن ان يستحق تأنيبه وكأنني أعترف امام قسيس !

***

وكانت الامسية من الجمال بحيث بقينا فى الشرفة بعد أن رفعت مائدة الشاى .. وكان الحديث ممتعا الى حد انني لم الاحظ ان ضوضاء البيت كانت تتلاشى من حولنا دون أن اشعر .. ومن كل مكان ، كانت الروائح النفاذة تنبعث من الازهار ، وكانت قطرات الندى الغزيرة تغرق الاعشاب ، وكانت البلابل تغرد على مقربة منا وهى تلوذ بأغصان الورود الكثيفة .. ثم تعود الى الصمت حين تسمع أصواتنا .. وكانت السماء المرصعة بالنجوم تبدو كما لو كانت تهبط لتقترب من رءوسنا ..

ولم افطن الى هبوط الليل الا حينما سمعت فجأة حفيف وطواط مكتوم ، كان يرفرف مذعورا حول ردائى الابيض .. فالتصقت بالجدار وانا على وشك ان أصيح ، غير أن الوطواط فر من تحت سقف الشرفة وانطلق يهيم فى ظلام الحديقة ..

وقال سيرج ميخايلوفتش ، وهو يقطع علينا الحديث :

ـ كم أحب بيتكن وارضكن فى بوكروفسكى .. ان المرء لا يسعه الا أن يتمنى البقاء فى هذه الشرفة كل حياته !

فأجابته ماشا قائلة :

ـ حسنا .. فلتبق فيها اذن ..

فقال سيرج :

ـ آه ! ابقى ؟ ان الحياة لا تتوقف !

فعادت ماشا تسأله قائلة :

ـ لماذا لا تتزوج اذن ؟.. انك خليق بأن تكون زوجا ممتازا

فقال وهو يبتسم :

ـ لماذا ؟ .. لان الناس لم يعودوا ـ منذ زمن طويل ـ يعتبروننى رجلا يصلح للزواج ..

ـ ماذا ؟ .. فى السادسة والثلاثين من عمرك وتزعم انك تعبت من الحياة ؟

ـ نعم ، بالتأكيد .. بل اننى متعب الى حد اننى لم أعد اطلب سوى الراحة .. ولكى يتزوج المرء ، يجب أن يكون لديه ما يقدمه غير التعب

وأومأ الى براسه واستطرد يقول : « هيا .. اسألى كاتيا .. فهى بحق ذلك الشخص الذى يجب أن نزوجه ، ويكون دورنا نحن أن ننعم بسعادتها مع من تتزوجه ! »

***

ولمست فى نبرات صوته حزنا دفينا ممزوجا ببعض التوتر . وساد الصمت بيننا لحظة ، ثم قال سيرج وهو يتجه نحو المائدة :

ـ تصورا .. لو اننى تزوجت فجأة فتاة شابة فى السابعة عشرة ككاتيا الكسندروفنا !.. ان هذا كان خليقا بأن يكون حادثا مؤسفا ! حقا انه مثل جميل ينطبق تماما على هذا الظرف ..!

وأخذت اضحك فى انطلاق ، وان كنت لم استطع ان ادرك على

الاطلاق لماذا كان يبدو مسرورا هكذا ، ولا هذا الظرف الذى كان يعنيه !

والتفت الى سيرج وقد بدا عليه أنه يمزح ، ثم أضاف قائلا : « حسنا ! ضعى يدك على قلبك وقولى لى الحقيقة .. أفلا تكون كارثة كبيرة بالنسبة اليك ان تربطى حياتك برجل عجوز فاتزمنه، وأصبح لا يريد الا البقاء حيث هو .. بينما أنت ـ يعلم الله ـ تودين أن تجرى هنا وهناك وفق هواك ؟ »

ولزمت الصمت ، وقد الم بى الضيق ، ولم أدر بماذا اجيب ! فضحك سيرج ثم قال : « اننى لم آت لاطلب يدك .. ولكن ، قولى لى حقا اذا كنت تحلمين بهذا الزوج ، وانت تتنزهين فى المساء خلال ممرات الحديقة ، وان هذا الزواج لا يكون مصيبة كبرى ؟ »

فشرعت اقول :

ـ ليس الى هذا الحد ...

فقاطعنى قائلا :

ـ وانه لن يكون كذلك خيرا كبيرا !

ـ نعم .. ولكنى قد اكون مخطئة ...

ـ هانتــذى ترين يا ماشـــا انهـــا على حق .. وانى لمعجب بصراحتها ومسرور تماما لان هذا الحديث قد دار بيننا ، وانكنت أعترف بأن زواجا كهذا يكون بالنسبة الى كارثة مابعدها كارثة ..

فقالت ماشا وهى تتنهد :

ـ يالك من رجل فريد ! انك حقا لم تتغير كثيرا ..

وغادرت ماشا الشرفة لتأمر بتقديم العشاء ، فلبثنا صامتين .. وكان كل شىء من حولنا صامتا كذلك ..

***

وكان البلبل الوحيد قد استأنف تغريده من جديد .. ولم يكن تغريده فى هذه المرة تغريد بداية المساء المتقطع المتردد ، بل تغــريد الليل الهادىء البطىء الذى كانت نغماته تملأ الحديقة بأسرها ..

وكان هناك بلبل آخر قد اخذ يرد ـ لأول مرة ـ على زميله النشيط من نهاية الحديقة .. وحينئذ ، صمت البلبل القريب وكأنه كان يستمع اليه ، ثم عاد الى التغريد فى صوت صداح كان صداه يتردد فى الهواء .. وكان صوتهما يترنم فى هدوء بالغ وسط عالم الليل هذا الخاص بهما ـ والذى كنا فيه كالغرباء ! .. وكان البستانى ذاهبا فى تلك اللحظة الى غرفته لينام ، وكان وقع حذائه الضخم يدوى فى ممرات الحديقة وهو يبتعد رويدا رويدا .. وفجأة ، سمعنا صفيرا تردد مرتين آتيا من ناحية الجبل ، ثم عاد كل شىء الى الصمت فلم نعد نسمع حتى حفيف الاشجار ..

وهبت نسمة عابرة حملت الينا مزيدا من عبير الازهار .. وكان السكون يحيرنى ، وكنت لا أدرى ماذا اقول . ونظرت الى سيرج ، وكانت عيناه تحدقان فى وهما تلمعان فى الظلام ، فتمتم يقول :

ـ ان الحياة طيبة حقا فى هذا العالم !

ولست أدرى لماذا تنهدت حينما سمعت هذه الكلمات ، فعاد سيرج يقول :

ـ ماذا اذن ؟..

فرددت عبارته قائلة :

ـ نعم .. ان الحياة طيبة فى هذا العالم ..

وساد بيننا الصمت من جديد .. ومرة اخرى ، شعرت باننى فى ضيق ، وجال بخاطرى اننى آلمته وانا اوافقه على انه عجوز ، وكنت أريد أن أواسيه ولكننى لم اكن اعرف كيف افعل ذلك ..

وفجأة ، نهض سيرج واقفا وقال :

ـ ولكن ... وداعا ! ان والدتى تنتظرنى للعشاء .. ولم اكد إراها اليوم ..

ـ اننى كنت اود ان اعزف لك « سوناتا » اخرى

فأجابنى قائلا فى برود ، او بدا لى على الاقل ان نبرات صوته كانت كذلك :

ـ ليكن ذلك فى مرة أخرى ..
ثم تقدم خطوة ، وقال وهو يأتى بحركة بسيطة :
ـ وداعا !..

***

وبدا لى حينئذ ـ اكثر من أى وقت آخر ـ اننى كنت قد آلمته ، فحزنت لذلك كثيرا .. ورافقته أنا وماشا حتى اسفل سلم الشرفة ، ثم مكثنا فى الفناء ننظر ناحية الطريق الذى اختفى فيه. وماكاد يتلاشى وقع سنابك جواده حتى اخذت اتنزه حول الشرفة واتامل حديقة البيت . ولبثت طويلا اتخيل كل ماكانت نزواتى تجعلنى اتخيله ، وانا واقفة وسط الضباب الذى كانت تسبح فيه ضوضاء الليل !

وعاد سيرج الى زيارتنا مرة ثانية وثالثة ، وزالت آخر الامر تلك الحيرة التى شعرت بها خلال الحديث الغريب الذى كان قد دار بيننا فجاة وعلى غير انتظار ، ولم تظهر هذه الحيرة بعد ذلك ..

وظل يحضر لرؤيتنا ـ خلال الصيف ـ مرتين أو ثلاث مرات كل اسبوع ، فالفته الى حد انه حينما كان يطيل الانقطاع عن الحضور ، كان يبدو لى عسيرا ان اعيش هكذا وحدى .. وكنت اغضب لذلك فى قرارة نفسى

وما لبث سيرج ان اصبح بالنسبة الى صديقا ودودا ، يتقصى شئونى ويثير فى نفسى اجابات صريحة للغاية ، ويسدى الىالنصح ويزجى التشجيع ، وينهرنى فى بعض الاحيان ، ويوقفنى اذا ما اقتضى الامر ذلك ..

ولكن .. على الرغم من جهوده هذه ليظل فى مستواى ، كنت اشعر بأن هناك عالما بأسره يكمن فى شخصه كنت غريبة عنه ، وكان لايرى ان يقحمنى فيه . وكان هذا يجعلنى ـ فوق كل شىء ـ اعتبره اكثر نضجا منى ، ويجذبنى اليه فى نفس الوقت . وكنت اعرف من ماشا والجيران انه كان يعانى بعض مضايقاتمن مشاكل

خاصة بالنبلاء ... عدا عنايته بوالدته العجوز التى كان يقيم معها، وعدا أعماله المتعلقة بشئون الزراعة واشرافه علينا .. ولكنى لم أستطع قط ان أصل الى معرفةموقفه من نفسه ووجهة نظره فىهذا الموقف ، ولم أستطع كذلك أن أعرف ماذا كانت مشاريعه وآماله . وحينما كنت أحاول أن أوجه الحديث ليدور حول هذه الشئون ، كان يقطب جبينه بطريقة خاصة وكأنه كان يريد أن يقول : « كفى ! أتوسل اليك .. ماذا يهمك أن تعرفى هذا ؟ » .. ثم يغير مجـرى الحديث الى موضوع آخر ..!

وكان ذلك يصدمنى فى بادىء الامر ، ولكننى الفت ذلك الى حد اننا اصبحنا لا نتحدث ابدا الا فيما يخصنى ، وانتهى بى الامـر بأن وجدت ذلك طبيعيا جدا ..

***

وشعرت كذلك فى البداية بشىء من عدم الرضا ، بينما وجدت بعد ذلك ــ على العكس ــ شيئا من السحر ، وأنا ألمس عدمالمبالاة التام الذى يكاد يبلغ حد الاحتقار لمظهرى الخارجى ، ولم أستطع أبدا أن أفهم من نظراته ولا من كلماته أنه كان يجدنى جميلة ، بل على العكس .. كان يقطب حاجبيه ويأخذ فى الضحك حينما كان يقال أمامه اننى لست دميمة .. بل لقد كان يروق له أن يبـين عيوب وجهى ، وان يغيظنى عن هذا الطريق ..

وكانت الثياب « الموضة » و « تسريحات » الشعر التى كانت ماشا تحب أن تزيننى بها أيام العيد تثير سخريته ، وكان ذلك يحزن ماشا كثيرا ، كما كان يحيرنى تماما ــ فى أول الامر ــ وكنت على حق فى ذلك !

وكانت ماشا قد أيقنت ، فيما بينها وبين نفسها ، اننى كنت أعجب سيرج ميخايلوفتش ، ولكنها لم تستطع أن تفهـم لمـاذا لا يفضل أن تبدو المرأة التى تعجبه فى أتم زينتها . ولكننى سرعان ماعرفت ماذا يريد .. انه كان يريدنى بسيطة فى كل شىء .. فى

الملبس ، والزينة ، وتصفيف الشعر ، فحرصت على تحقيق مايريد ... فى الوقت الذى لم اكن استطيع فيه - انا نفسى - ان اكون بسيطة مع نفسى !

***

كنت اشعر انه يحبنى .. ولكن ، ترى هل كان يحبنى كطفلة أم كامراة ؟ ولم أكن الى ذلك الوقت قد القيت على نفسى هـذا السؤال ، وكان هذا الحب غاليا لدى وعزيزا على .. ولما احسست بأنه كان يعتبرنى احسن فتاة فى العالم ، صار يحلو لنفسى انأتمنى ان يستمر هذا الزيف فى تعميته . والحق اننى كنت أخدعه على الرغم منى .. ولكننى كنت وأنا اخدعه أشعر بأنى اتطورالىأحسن، كما كنت اشعر بأن من الافضل أن أكشف له عن بعض الجوانب الطيبة فى نفسى ، من أن أكشف له عنها فى مظهرى .. فشعرى ، وبداى ، ووجهى ، ومشيتى - مهما بلغت من جمال أو قبح - فقد استطاع أن يقدرها بنظرة واحدة ، وكان يعرف تماما أننى - حتى ولو كنت اقصد خداعه - لن استطيع ان اضيف شيئا الى مظهرى الخارجى . وكان سيرج ، على العـكس ، لا يعرف حقيقة روحى .. لانه كان يحبهـا ، ولان روحى كانت فى تلك اللحظـة بالذات فى أوج نموها وتفتحها .. واخيرا ، لانه كان من اليسير على ان اخدعه فى مثل هذا المجال ، وكنت اخدعه فيه حقا ..

وكم كان شعورى نحوه لطيفا محببا حينما فهمت هذا كله حق الفهم !.. فهذا الاضطراب بلا سبب ، وهذه الحاجة الى الحركة التى كانت تجثم فوق صدرى على نحو ما .. كل ذلك قد اختفى تماما . وكيفما كانت نظرته الى : فى وجهى ، أو من الجانب ، وأنا جالسة ، أو واقفة .. وسواء أكان شعرى منثورا أو مصففا ، فانه كان ينظر الى دائما فى سرور ، وكان يعرفنى من قمة رأسى الى اخمص قدمى . وقد قدرت انه كان مسرورا منى كما كنت مسرورة منه . واعتقد انه لو قال لى فجأة كالاخرين - وعلى غير عادته - اننى أحبـك .. فان ذلك كان خليقا بأن يغضبنى بعض الشىء !

ولكن ، على العكس ، يا للسرور والصفاء اللذين كنت اشعر بهما فى اعماق نفسى حينما كان يسمع كلاما يخرج من فمى .. فيتأملنى فى اهتمام ، ويقول فى انفعال وبلهجة كان يحرص على أن تعجبنى :

ـ نعم ، نعم .. ان فيك شيئا ! .. انك فتاة طيبة ، ومن واجبى أن أقول لك ذلك ..

ترى لماذا كنت اتقبل هذا الاطراء الذى كان يملأ قلبى سرورا وكبرياء ؟ اكان ذلك تارة لاننى قلت اننى استلطف حب جريجوار العجوز لحفيدته ؟ ام تارة أخرى لاننى انفعلت لحد البكاء لاننى اقرا شعرا او رواية ؟ أم لاننى فضلت «موزار» على «شولوف» ؟ وكان ذلك الحـــدس غير المألوف هو الذى يمكننى من ان اخمن ما هو خير ما يحبه سيرج .. كان ذلك الحدس بالنسبة الى مثـــارا للدهشة .. ذلك اننى لم اكن اعرف بعد بطريقة ايجابية ما هو خير ، وما يحبه . وكانت أكثر عاداتى الســـابقة وميـــولى لا تروق له ، وكانت تكفى حركة لا تكاد تلحظ من حاجبيه او نظرة سريعة منه لافهم ان ما أريد ان أفعله كان لا يعجبه .. وكان يكفى ان ينم وجهه عن الشفقة الممزوجة بالاحتقار لاعتقد على الفور اننى لم اعد احب ما كنت قد احببتـــه .. وكنت استطيع ان اعـــرف سلفا ما سيقوله لى ، لو انه جال بخاطره أن يسدى الى نصيحة ، او يبدى ملاحظة عن امر من الامور

***

لقد كان سيرج اذا اراد ان يسألنى عن شىء ، وجه الى نظرة .. وكانت نظرته تنتزع منى عادة الفكرة التى يريد أن يعرفها . ولم تعد كل افكارى وقتئذ ، وكل مشـــاعرى ملكا لى .. بينما اصبحت افكاره ومشاعره فجأة هى نفس افكارى ومشاعرى .. ذلك انها كانت تنفذ الى حياتى وتجعلها باسمة مشرقة ..

وبطريقة غير محســوســـة ، بدات أرى كل الاشياء من حولى ، وماشا ، وخدمى ، وسونيا ، ومشاغلى بعينيين آخريين .. وبدت

لى فجأة تلك الكتب ، التى كنت اقراها لاقتل ما بى من الضيق ، اعظم سحر ممتع فى الحياة . وذلك لسبب واحد ، وهو اننـــا كنا نتحدث معا عن الكتب ، وكنا نقرأ معا كل ما كان يحضره منها الى .. وكنت قبل ذلك انظر الى عملى مع سونيا والى الدروس التى اعطيها لها على انها واجب مؤلم ، كنت احرص على تأديته بدافع من مجرد الشعور الواجب .. اما الآن ، وقد اصبح سيرج يأتى احيانا ليحضر معنا هذه الدروس ، فقد اصبحت اشعر بسرور كبير وانا ارقب عن كثب ذلك التقدم الذى كانت تسجله شقيقتى

وكان يبدو لى مستحيلا فيما مضى ، ان احفظ مقطوعة موسيقية بأكملها .. اما الان وانا اعرف انه سيستمع اليها وقد يصفق لها ، فلم اعد أتردد فى ان اكرر عزفها أربعين مرة متتالية ، حتى انتهى الامر بماشا المسكينة ان تضع فى أذنيها قطعا من القطن ، فى الوقت الذى كنت لا اشعر فيه انا بأقل ملل او ضيق .. واصبحت اناملى تعزف هذه « السوناتا » القديمة بطريقة مختلفة تماما ، وافضل بكثير مما كنت افعل من قبل ..

***

وحينئذ فقط ، ادركت انه لم يكن هناك ما يضطـــر ماشا ان تكون لنا بمثابة الام غير حبها لنا .. والحق انها كانت لنا أيضـــا بمثابة الصـــديقة التى تحقق جميع نزواتنـــا .. كما ادركت كل تضحيات هـــذه المخلوقة الودود ، وتفانيها ، ومدى التزاماتى نحوها .. حتى اننى ازددت حبا لها لهذا السبب . وكان سيرج قد علمنى أيضا ان ارعى خدمنا وفلاحينا ومعاونينا ، فأصبحت انظر اليهم جميعا بمنظار جديد ..

والغريب فى الامر اننى كنت اعيش بين هؤلاء جميعا .. رغم اننى بلغت السابعة عشرة من عمرى .. وانا احس بأننى غريبة عنهم تماما وكأننى اعيش مع اناس لم يسبق لى ان رايتهم من قبل ... ولم اكن قد فكرت مرة واحدة انهم مخلوقات آدمية تشعر مثلى بالحب

والرغبة والندم .. وانقلبت فجاة حديقة بيتنا وغاباتنا ومزارعنا ، التى كنت اعرفها جيدا منذ ان ولدت ، اشياء جديدة على .. وبدات انظر اليها كما لو كنت اراها لاول مرة ، وادرك كل ما فيهـا من جمال ..

وكان سيرج على حق دائما حينما كان يقول انه ليس فى الحياة سوى مصدر واحد للسعادة ، هو ان يعيش المرء من اجل الآخرين. وكان ذلك يبدو لى غريبا ، وكنت لا افهمه .. ولكن هذه العقيدة تسللت رويدا رويدا الى اغـوار نفسى . وفى كلمة واحـدة : فتح سيرج امامى آفاقا جديدة لحياة حافلة بالمتع فى الحاضر ، دون ان يغير شيئا من حياتى السابقة ، او يضيف اليها شيئا ، الا ان ينمى فى نفسى احاسيسها الطيبة ومشاعرها النبيلة ..

وكان كل شىء من حولى قد ظل منذ طفولتى مطمورا غامضا .. وقد بدا لى الآن كأنما كان ينتظر ان احس بوجوده ليتحدث الى روحى ويغمرها بالسعادة ..

وكثيرا ماكان يحدث خلال هذا الصيف ، ان اصعد الى غرفتى وارتمى على سريرى ــ وهو المكان الذى كانت تراودنى فيه هواجسى القديمة المتعلقة بالربيع ــ واشعر بأننى ممتلئة برغبات المستقبل وآماله. وكنت اشعر الى جوار هذا باضطراب آخر كان يحتضننى ، مصـدره سعادتى الراهنـة .. كنت لا استطيع ان انام ، فأنهض واجلس على سرير ماشـا واقول لهـا اننى سـعيدة للغـاية .. وحينما اتذكر ذلك الآن ، اجد انه كان عبثا ان أقوله لها لانها كانت تستطيع ان تراه بنفسها .. وكانت ماشا تقول لى انها هى أيضا لم يعد لديها ما يقلقها ، وانها كانت سعيدة جدا .. ثم تقبلنى فى حنان .. وكنت اصـدقها لانه كان يبـدو لى أن من العـدل ومن الضرورى ان يكون الكل سعداء .. ولكن ماشا كان فى وسعها ان تفكر فى النوم ، وكانت تستطيع حتى أن تتظـاهر بالغضب وأن تطردنى من سريرها لتنام .. اما انا فقد كنت ــ على العكس ــ اقلب فى نفسى لوقت طويل آخر جميع الاسـباب والظروف التى

تثير فى نفسى الشعور بالسعادة .. وكنت انهض فى بعض الاحيان من جديد ، واصلى مرة اخرى ، وادعو الله من كل قلبى ، واشكره من اعماقى شكرا جزيلا على السعادة التى غمرنى بها ..

***

كان كل شىء فى غرفتى هادئا ، عدا انفاس ماشا التى كانت تتردد بانتظام اثناء نومها ، ودقات ساعتها الموضوعة الى جوارها . وكنت اتقلب فى فراشى وانا اتمتم بضع كلمات ، واقبل الصليب المعلق فى رقبتى . وكانت النوافذ والابواب موصدة .. وكنت اتمنى الا ابرح هذه الفرفة ابدا ، والا يشرق الصباح .. وذلك حتى لا يتبدد هذا الجو المشبع بالصفاء والمتعة الروحية .. وكان يبدو لى أن أحلامى وأفكارى وصلواتى ودعواتى كانت نسمات مشحونة بأرواح تعيش معى ، وترفرف حول سريرى ومن فوق راسى ..

لقد كانت كل فكرة من افكارى هى من افكار سيرج ، وكان كل شعورى من شــــعوره . وكنت لا ادرك بعد ما هو الحب ، وكنت اظن ان الحب يمكن أن يكون دائما هكذا ، وأن مثل هذا الشعور يمنحه المرء بلا مقابل

الفصل الثالث

موسم الحصاد

لمن أكرس نفسى ؟

وذات يوم ، وكان ذلك فى موسم حصاد القمح .. ذهبت بعــد العشاء مع ماشا وسونيا لنجلس فى الحديقة على مقعدنا المفضل تحت ظلال أشــجار « التليو » على قمة ربوة ، كنا نســتطيع من فوقها ان نكتشف الحقول والغابات . وكانت قد انقضت ثلاثة ايام لم يأت فيها سيرج لزيارتنا ، وكنا ننتظره خاصة فى ذلك اليوم لانه وعد « الخولى » بالحضور ليلقى نظرة على المحصول ..

وفى نحو الساعة الثانية ، لمحناه يمر على مرتفع يتوسط حقــلا من حقول الشوفان ، فابتسمت لى ماشا ابتســامة ذات مغزى ، وأمرت باحضار بعض الخوخ والكرز اللذين كان يحبهما كثيرا .. ثم تمددت على المقعد واستسلمت لسنة من النــــوم .. وانتزعت غصنا من اغصان « التليو » واخذت « أهوى » به على ماشا ، وانا اواصل القراءة .. وكنت التفت ورائى بين لحظة واخرى لارقب الطريق الذى كان لابد ان يصل منه . اما سونيا ، فقد كانتجالسة على جذع شجرة مقطوع تعد لدميتها مهدا من الخضرة ..

كان النهار شديد الحرارة.. وكانت الغيوم تكون دائرة فى الافق بعد ان اظلمت فى الصباح ، وكان الجو ينذر بالعاصفة .. وقــد اشاع ذلك فى نفسى اضطرابا شديدا ، كما هى عادتى — علىالدوام— فى مثل هذه الحالات . ولكن السحب اخذت تتفرق منــــذ الظهر ، وبدات الشمس تظهر وسط سماء صافية ، وصار الرعد لا يزمجر الا فى نقطة واحدة .. ويظهر بريقه فى قلب سحابة ثقيلة بعيدةكانت تمتزج بغبار الحقول عند ملتقى السماء بالارض .. وأصــــبح من الواضح — بالنسبة الينا على الاقل — اننــا لم نعد نخشى انطلاق العواصف فى ذلك اليوم .. وكنا نسمع حينا ، انينا بطيئا طويــلا

صادرا من عربة محملة بالقمح ، ونسمع حينا آخر صـوت هزات عربات الركاب التى كانت تلتقى ثم تفترق ، وخطـوات الحمالين والسائقين وهم يسرعون الى جوار مركباتهم وقـد تطايرت ذيول قمصانهم فى الهواء .. كنا نسمع ذلك ونراه فى هذا الجزء من الطريق الذى كنا نستطيع ان نتبينه من مكاننا فوق الربوة . وكان الغبار الكثيف لا يتطاير ولا يسقط على الارض ، ولكنه يظل عالقا بأسوار الحديقة المعشبة وبأوراق الشجر الشفافة ..

وبعيدا بعض الشىء ، عند مخزن الغلال ، كانت تنبعث أصوات عربات أخرى .. وهناك ، كانت حزم القمح الذهبية تكدس الى جوار ارض فضاء مسورة .. وسرعان ما لمحت عيناى أكواما هرمية تحوم حولها هامات الفلاحين ..

وكان الحر والغبار يغمران كل مكان الا ركننا الصغير المفضل فى الحديقة . ومع ذلك ، كان حشد من العمال يروح ويغدو هنا وهناك وهو يثرثر ويمزح وسط هذا الطقس الخانق تحت نار الشمس المحرقة . واخذت اتأمل ماشا وهى نائمة فى رفق على مقعدنا الرطب، وهى تحتمى بمنديلها القطنى الابيض ، والكرز الاسود اللذيذ الموضوع فى الطبق ، وثيابنا الخفيفة النظيفة للغاية . وكان شعاع الشمس ينعكس ويتموج فى ماء الدورق .. وكنت اشعر وقتئذ بسعـادة غريبة . ورحت افكر : ماذا ينبغى ان افعل ؟ .. ترى هل انا مذنبة اذ اشعر بأننى سعيـدة هكذا ؟ ولكن كيف ، ولمن أكرس نفسى وسعادتى ؟

***

كانت الشمس قد توارت خلف قمم أشجار البلوط الشامخة فى الحديقة ، وانخفض الغبار واستقر اكثره على الأرض .. واصبحنا فى تلك اللحظة نلمح من بعيد مناظر الطبيعة ، وقد ازدادت وضوحا واشراقا تحت أشعة الشمس المائلة .. وكانت السحب قد انقشعت تماما ، وكنت ارى فيما وراء الاشجار العالية اكواما اخرى من حزم القمح الى جوار مخزن الغلال ، ينزل الفلاحون من فوقها ..

ولآخر مرة فى ذلك اليوم ، مرت العربات مسرعة ، وقد اخـذت الاجراس المعلقة فى رقاب خيولها تجلجل محدثة موسيقى صاخبة كان صداها يتردد فى الهواء .. وكان غناء القرويات يتردد ممتزجا برنين هذه الاجراس ، وهن عائدات الى بيوتهن تحمل كل واحدة « شوكة » فوق كتفها ، وقد شدت حزاما الى وسطها ..

ولم يحضر سيرج على الرغم من اننى لمحته مرة اخرى منذلحظات طويلة عند سفح الجبل .. وفجأة ، ظهر فى آخر ممر الحديقة من الناحية التى لم اكن اتوقع حضوره منها قط ، لانه دار حول المرتفع الذى كنا نجلس فوقه ..

وتقدم نحوى سيرج وقد رفع قبعته ، فبـدا لى وجهه المشرق الصبوح . ولما وقعت عيناه على ماشا التى كانت لا تزال نائمة ، عض شفته وغمز بعينه .. ثم مشى على اطراف اصابعه ، فأدركت على الفور انه كان فى احدى لحظات انشراحه ومرحه دون سبب ظاهر ، وهى لحظات كنت احبه فيها كثيرا وكنا نسميها فيمابيننا : الانطلاق الفطرى . وبدا لى سيرج فى تلك اللحظة كانه تلميذ هارب من فصله ، وكان السرور والمرح يشعان من قمة رأسه الى اخمص قدميه ..

واقترب منى ، ثم صافحنى قائلا بصوت منخفض :

ــ طاب يومك ايتها « البنفسجة الصغيرة » .. كيف الحال ؟

حسنا !

فلم اجب ، ولكنى وجهت اليه نفس هـذا السؤال .. فأجاب قائلا :

ــ واننى فى خير حال ، واشعر اليوم باننى فى الثالثة عشرة من عمرى .. اود أن العب بجواد من الخشب ، وان أتسلق الاشجار !

فقلت له وانا انظر فى عينيه الباسمتين ، واشعر بأنهذا «الانطلاق الفطرى » كان يغزونى انا أيضا :

ــ انه « الانطلاق الفطرى » ..

فتمتم قائلا وهو يغمز لى ثانيــة بعينه ، ويكتم ابتســامة على شفتيه :

ـ نعم .. ولكن لمــاذا تريدين اذن أن توقظى ماشا كارلوفنــا المسكينة ؟

والواقع اننى لم اكن قد لاحظت اننى كنت ـ وانا انظر اليه ـ اضرب بالغصن الذى كان فى يدى منديل المربية ، وامس به وجهها، دون ان اشعر ، فانفجرت ضاحكة ..

وقلت له فى همس ، وكأننى احرص على الا اوقظ ماشا :

ـ لا شك فى انها ستقول انها لم تنم !

ولكننى لم اكن ـ فى الواقع ـ اهمس لهذا السبب ، وانما كنت اجد من المستحب ان اكلمه على هذه الصورة ..

وكان سيرج من جانبه يحرك شفتيه ويقلدنى ، وكأنما كان هو ايضا يقول لى بصوت منخفض شيئا يجب الا يسمعه احد .. ثم لمح طبق الكرز وتظاهر بأنه يستولى عليه خلسة ، ثم انطلق الى سونيا ليجلس مكان الدمية تحت شجرة « التليو » . واوشــكت شقيقتى أن تغضب لولا انه صالحها بسرعة عن طريق تنظيم لعبة راحا يلعبانها معا ، وهى سباق فى التهام الكرز !

وقلت له وانا ابتسم :

ـ اتريد ان آمر باحضار كمية اخرى من الكرز ؟ . ام نذهب نحن لنحضره

فتناول الطبق ووضع فيه الدمى ، وقال انه من الافضل أن نذهب نحن لاحضاره ..

***

وذهبنا ثلاثتنا الى اشجار الكرز ، بينما كانت سونيا تضــحك وهى تعدو خلفه وتجذبه من ذيل معطفه كى يعيد اليهــا الدمى ، فاعادها اليها ثم التفت الى ، وقال لى فى صوت خفيض بالرغم من انه لم يكن هناك احد نخشى ان نوقظه :

ـ لمــاذا لا توافقين على أنك « بنفسجة » ؟ .. حينما اقتربت منك بعد ما تحديت كل هذا الغبار والحر والتعب ، خيل الى اننى اشم رائحة البنفسج .. والحق انه لم يكن هذا البنفسج ذا الرائحة القوية ، بل البنفسج الذى ينمو ـ كما تعرفين ـ وتكون «اول قطفة» منه لا تزال متواضعة ، وتنبثق منها رائحة هى مزيج من الجليد الذى يتلاشى وعشب الربيع ...

فقلت له على الفور لأخفى ما أثارته كلماته فى نفسى من سرور واضطراب :

ـ ولكن قل لى .. هل المحصول على ما يرام ؟

ـ انه مدهش ! .. ان هؤلاء الفلاحين قوم ممتازون فى كل مكان ، وكلما ازددنا معرفة بهم تضاعف حبنا لهم ..

ـ آه ، نعم .. فقبل وصولك بلحظة قصيرة ، كنت ارقب العمل من المكان الذى كنت جالسة فيه ، فأدركت مدى ما يبذلونه من جهد فى الوقت الذى كنت انعم فيه بقدر كبير من الراحة و ..

فقاطعنى قائلا ، وهو يلقى على نظرة مداعبة :

ـ لا تلعبى بهذه المشاعر يا كاتيا .. فعملهم هذا شىء مقدس ، وليحفظك الله من الادعاء فى مثل هذه الامور !

ـ ومن أجل هذا فاننى لا أقول ذلك الا لك وحدك ..

ـ أعرف ذلك .. حسنا ! وأين الكرز ؟

***

كانت أشجار الكرز محاطة بسور له باب مغلق .. ولم يكن هناك بستانى واحد ، اذ ان سيرج كان قد ارسلهم جميعا للعمل . وجرت سونيا لتحضر المفتاح ، ولكن سيرج لم ينتظر عودتها ، وتسلق السور من أحد اركانه بعد ان تعلق ببعض الشباك ، وقفز الى الناحية الاخرى .. وقال لى من هناك :

ـ هل لك أن تعطينى الطبق ؟

ـ كلا .. اريد ان اجمع الكرز بنفسى ، وسأذهب لاحضر المفتاح

لان سونيا لم تجده بلا شك ..

ولكننى ، فى نفس الوقت ، تملكتنى نزوة بأن أفاجئه لارى ماذا كان يفعل هناك ، وماذا كان ينظر اليه ، وماذا كانت هيـــأته .. وباختصار : لأراه فى الوقت الذى يعتقد فيه أن أحدا لا يراه .. أو لعل ذلك يرجع ـ بكل بساطة ـ الى اننى كنت أريد الا اضيع فى تلك اللحظة دقيقة واحدة من متعة النظر اليه .. فمشيت فوق الشوك على أطراف اصابعى ودرت حول السور ، ثم ذهبت الى الناحية الاخرى حيث السور أقل ارتفـــاعا ، ووقفت فوق وعاء مقلوب بحيث أصبح صدرى فى مستوى الســـور ، وانحنيت الى الداخل ابحث بعينى لانظر ما يشمله هذا المكان ..

كانت أشجار الكرز القديمة منحنية للغاية ، وتتدلى منها عناقيد من الكرز المسود اللذيذ .. فأخفيت راسى تحت الشباك ، ولمحت سيرج بين اغصان كثيفة ملتوية فى كرزة عجوز .. ولا شك فى انه كان يعتقد اننى رحلت ، وان أحدا كان لا يراه ..

***

كان سيرج جالسا على حطام كرزة عجوز حاسر الراس ، وقـد اغمض عينيه ، وراح يداعب باهمال بين اصابعه قطعة صغيرة من صمغ الكرز .. وفجأة ، فتح عينيه وتمتم يقول شيئا وهو يبتسم ، وكانت ابتسامته وكلماته التى تمتم بها لا تشبه الا قليلا مما كنت أعرفه عنه ، حتى اننى خجلت لتجسسى عليه . وقد بدا لى ان ما همس به كان هذه الكلمات : « كاتيا .. هذا غير ممكن ! » ثم كرر هامسا فى مزيد من الحنان : « عزيزتى كاتيا ! » .. ولكنى فى هذه المرة سمعت هاتين الكلمتين فى وضوح تام .. فخفق قلبى فى عنف ، وشعرت بموجة من المرح تغمر نفسى ، واخذت الى حد كبير ... حتى اننى اضطررت الى التشبث بالسور لامنع نفسى من السقوط ، وحتى لا ينفضح امرى !

وسمع سيرج حركتى ، فالتفت وراءه فى شىء من الفزع .. ثم

غض بصره فجأة وقد احمرت وجنتاه كأنه طفل صغير ، وأراد ان يقول لى شيئا فلم يستطع ، وازداد احمرار وجهه .. ومعذلك، فقد ابتسم وهو ينظر الى .. فابتسمت لهكذلك ، وقدلاحظتانملامحه كانت تنطق بالسعادة . كلا ، كلا .. ان سيرج لم يعد اذن ذلكالعم العجوز الذى كان يغرقنى فى المداعبة والتوجيه ، وانما كنت ارىامام عينى رجلا فى نفس مستواى .. رجلا يحبنى ويخشانى ، وكنت انا نفسى اخشاه واحبه .. !

وانقضت لحظات ، لم يقل احدنا خلالها شيئا للآخر ، ولم يقنع بأن يبادله النظرات .. وفجأة ، قطب سيرج حاجبيه .. وانطفأ لهيب نظرته فى نفس اللحظة التى تلاشت فيها ابتسامته . وسرعان ما عاد الى موقفه الابوى البارد حيالى ، كما لو كنا قد فعلنا شيئا منكرا ، وكما لو كان قد ثاب الى رشده ونصحنى بأن احذو حذوه !

وقال لى :

ــ انزلى من هنا حتى لا تصابى بأذى .. وصففى شعرك ، ثم انظرى ماذا تشبهين !

فقلت فى نفسى وقد تملكنى الغضب : « ترى لماذا يخفى شعوره هكذا ؟ ولماذا يريد ان يؤلمنى ؟ »

وتملكتنى فى تلك اللحظة رغبة عارمة فى أن اضاعفاضطرابه ، وان اجرب قوة اغرائى عليه ، فتعلقت بيدى فى غصن شجرةمجاورة ثم قفزت الى الناحية الاخرى من السور وانا اقول له :

ــ كلا .. اريد ان اقطف الكرز بنفسى ..

وقبل أن يتمكن من معاونتى ، قفزت الى الارض بين اشجارالكرز .. فاحمر وجهه من جديد ، وصاح قائلا وهو يحاول ان يخفى اضطرابه تحت ستار من الغضب :

ــ اية حماقة هذه التى ترتكبينها هنا !..

ــ كان من الممكن ان يصيبك اذى .. والآن ، ارينى كيف

تستطيعين الخروج من هذا المكان ؟

وبلغ اضطراب سيرج فى تلك اللحظة اضعاف ما اعتراه من قبل ، ولكن اضطرابه هذا صار لا يفرحنى ، بل يثير خوفى .. ذلك لاننى كنت بدورى مضطربة تعلو وجنتى حمرة الخجل .. فابتعدت عنه وانا لا اعرف ماذا اقول ، وأخذت اجمع الكرز ولا ادرى أين اضعه. ورحت الوم نفسى واعض بنان الندم ، وقد استبد بى الخوف .. وكان يبدو لى فى تلك اللحظة اننى بتصرفى هذا قد فقدت مكانتى فى قلبه الى الابد !

ولبثنا هكذا نحن الاثنين بلا حديث ، وكان الصمت ثقيلا علينا.. واقبلت سونيا تجرى وبيدها مفتاح الباب ،فأخرجناظهورهاالمفاجىء من هذا الموقف المربك . ومع ذلك ، فقد استمر بيننا الصمت .. وكل منا يفضل ان يتحدث الى شقيقتى ..

وهدات نفسا لما عدنا الى ماشا من جديد ، واقسمت لنا هذه انها لم تنم ، وانها سمعت كل شىء . وحاول سيرج مرة أخرى ان يعود الى موقفه كأب يحمينى ، ولكن محاولته هذه باءت بالفشل ولم تستطع أن تخدعنى . وكان هناك حديث معين كان قد جرى بيننا منذ يومين ، وكان لا يزال حيا فى ذاكرتى ..

كانت ماشا قد تطوعت برأى من عندها ، فقالت فى جد واهتمام :

ـ ان الرجل يقع فى شباك الحب بسهولة اكثر من المراة ، ومن اليسير عليه ان يعبر لها عن حبه ..

وصمتت ماشا لحظة ثم لخصت رأيها قائلة : « يستطيع الرجل ان يقول انه يحب ، ولكن المراة لا تستطيع أن تفعل ذلك »

فرد عليها سيرج قائلا :

ـ يبدو لى ان الرجل لا يستطيع ، ولا ينبغى له أن يقول انه يحب ..

فسألته قائلة :

ـ لماذا ؟

ـ لان ذلك سيكون كذبا على الدوام .. وبعد ، فمـا معنى ان يكتشف الرجل انه يحب ؟ أهو حدوث شيء غير عادى لمجرد أن ينطق بهذه الكلمة ؟ شيء غير عادي أو ظاهرة أيا كانت تحدث هكذا فجأة ودفعة واحدة ؟ يبدو لى أن هؤلاء الناس الذين يقولون لك بطريقة رسمية : « أحبك » .. اما انهم يخدعون انفسهم ، أو ما هو اسوأ من ذلك : يخدعون الآخرين ..!

فقالت ماشا تسأله :

ـ وهكذا ، حسب رأيك ، تعرف المرأة أن الرجل يحبها حينما لا يقول لها انه يحبها !

ـ هذا شيء لا اعرفه ، ولكل رجل طريقته فى الكلام .. ولـكن ثمة مشاعر تفرض فهمها بنفسها .. فحينما اقرأ رواية ما ، فاننى أحاول دائما ان اتصور منظر الملازم « كريلسكى » أو « الفريد » وهما يقولان : « أحبك يا الينورا .. » ويظنان انه سيحدث فجأة شيء غريب ، فى حين لا يحدث شيء على الاطلاق لا فى نفسها ولا فى نفسه .. فوجهاهما ، ونظراتهما ، وكل شيء فيهما يظل دائمـــا كما هو ! ..

وفهمت من خلال هذا المزاح ان وراءه معنى جديا ، وان هــذا المعنى قد يتعلق بى .. وكانت ماشا لا تسمح ــ بسهولة ــ بأن يطول الحديث عن أبطال الروايات ، فصاحت فى سيرج قائلة :

ـ انك تلقى دائما بآراء تعارض بها آراء الآخرين ، هيا .. وكن صريحا : الم تقل انت نفسك أبدا لامرأة انك تحبها ؟

فأجابها سيرج قائلا وهو يضحك :

ـ اننى لم أقل ذلك أبدا ، ولم اثن ركبتى أمام أحد قط .. ولن أقوله لاحد ..

***

تذكرت حينئذ هذا الحديث الذى جرى بيننا منذ يومين ، فقلت فى نفسى : « نعم .. انه ليس بحاجة الى ان يقول لى انه يحبنى ،

فهو يحبنى ، وانا أعرف ذلك ، ولن تستطيع كل الجهود التى يبذلها ليبدو امامى بمظهر عدم الاكتراث ، أن تنتزع من نفسى اعتقادى الراسخ بأنه يحبنى ..

ولم يتحدث الى سيرج طيلة هذه السهرة الا قليلا جدا ، ولكننى كنت أشعر بحبه فى كل كلمة من كلماته ، وكل حركة من حركاته ، وكل نظرة من نظراته ، وكنت لا اشك أبدا فى ذلك . . والشيءالوحيد الذى كان يغيظنى منه ويبعث الحزن فى نفسى انه كان لا يزاليحرص على ان يخفى حبه عنى ويدعى البرود ، بينما كان كل شيء قد اصبح واضحا تماما بحيث كنا نستطيع فى كثير من السهولة والبساطة أن نكون سعداء أكثر مما يتسنى لغيرنا من الناس . ولكننى من ناحية اخرى كنت اتعذب ، وكأننى ارتكبت جرما ، لاننى قفزت فوق سور البستان ولحقت به بين أشجار الكرز .. وكان يبدو لى وقتئذ انه كف عن تقديره لى ، واصبح يشعر نحوى بشيء من الجفاء

وجلست الى البيانو بعد تناول الشاى ، فلحق بى سيرج فى الصالون وقال :

ــ اعزفى لنا شيئا يا كاتيا ..

فحدقت فى عينيه فجأة ، وقلت له :

ــ هل انت غاضب منى يا سيرج ؟

ــ لماذا ؟ ..

فأجبته وقد اندفع الدم غزيرا الى وجنتى من شدة الخجل :

ــ لاننى لم أطعك بعد ظهر اليوم ..

ففهم ما كان يجول بخاطرى ، وهز راسه وابتسم .. وادركت من ابتسامته انه كان يريد أن ينهرنى قليلا ، ولكنه لم يعد يستطيع ان يفعل ذلك ..

وقلت له وانا اتخذ مكانى أمام البيانو :

ــ لقد انتهينا من هذا الموضوع . وأصبحنا مرة اخرى على وفاق .. أليس كذلك ؟

ـ اعتقد ذلك ..

ولم يكن فى هذا الصالون الكبير ذى السقف المرتفع سوى شمعتين فوق البيانو .. اما بقية الغرفة فكانت غارقة فى شبه ظلام .. ومن خلال النوافذ المفتوحة ، كنا نتأمل مناظر ليالى الصيف المقمرة ، وكاد يسود المكان سكون شامل لم يكن يعكر صفوه بين حين وآخر الا وقع اقدام ماشا فى الصالون ، وصوت سنابك جواد سيرج المشدود الى النافذة ، وهو يضرب الارض ويحطم بعض الاعشاب ..

***

وجلس سيرج خلفى بحيث لم اكن استطيع ان أراه ، ولكن نظراته وحركاته التى لم يكن فى استطاعتى أن أميزها ، كانت تنفذ الى أعماق نفسى فتحدث دويا فى قلبى ..

وجرت أناملى على البيانو تعزف المقطوعة التى كان قد احضرها لى ، فحفظتها أمامه ومن أجله .. وكنت لا افكر ابدا فيما كنت أعزفه ، ولكن كان يبدو لى اننى أجيد عزفه ، وان هذا العزف يعجبه .. وكنت أقاسمه المتعة التى كان يشعر بها ، وادرك دون أن أراه أن نظراته من مكانه كانت مثبتة على ..

وبينما كانت أناملى تمس مفاتيح البيانو ـ دون أن أعى ماكنت أفعله ـ بدرت منى حركة لا ارادية .. فقد نظرت اليه ، وكان رأسه ظاهرا بوضوح فى ظلام الليل ..

كان سيرج جالسا يتأملنى بامعان ، وقد أسند جبينه الى راحة يده ولمعت عيناه ببريق شديد ، فابتسمت وانا افاجئه بالتطلع اليه .. وتوقفت عن العزف .. فابتسم هو الاخر ، ومال برأسه على « النوتة » بصورة فهمت منها انه يلومنى ويطلب منى أن اتابع العزف ..

وحينما انتهيت من العزف ، كان القمر فى كبد السماء ، واخذ ضوؤه الفضى يتسلل من خلال النوافذ ، ويمتزج بضوء الشمعتين الخافت لينعكس على « الارضية » الخشبية المصقولة ..

وقالت ماشا :

ـ انك تصرفت تصرفا سيئا وتوقفت عن العزف فى أجمل موضع ، وارى أنك لم تحسنى العزف !

فاحتج سيرج قائلا :

ـ بل على العكس .. انها لم تنجح يوما فى العزف كما نجحت اليوم ..

ونهض من مقعده ، واخذ يذرع أرض الصالون المعتم والردهة جيئة وذهابا ، وهو ينظر الى مبتسما .. فكنت ابادله الابتسام .. وكنت أرغب فى الضحك ـ دون اى سبب ـ لفرط سعادتى بما حدث فى ذلك اليوم وفى تلك اللحظة التى كنا فيها ..

***

وبينما كان الباب يحجب عنى سيرج لحظة ، قفزت الى رقبة ماشا واخذت اقبلها فى موضعى المفضل على رقبتها السمينةواسفل ذقنها .. وحين ظهر ثانية ، أعدت لوجهى مظهره الجاد ، وكتمت ضحكة كادت ان تفلت من بين شفتى !

وسألته ماشا قائلة :

ـ ماذا جرى لها اليوم ؟

ولم يجب سيرج ، بل اكتفى بأن تندر على .. وكان يعرف جيدا ماذا كان يحدث لى !

ووقف سيرج أمام باب الشرفة التى تطل على الحديقة ثم قال:

ـ هيا .. احضرا الى هنا لتشاهدا جمال هذه الليلة !

فلحقنا به هناك .. وكانت حقا ليلة لم أر مثلها بعد ذلك .

كان القمر بدرا يسطع خلفنا من فوق البيت .. وكان سقف البيت واعمدة الشرفة تعكس ظلالا قصيرة تنحدر بميل الى ممر الحديقة المفروش بالرمل ، وعلى حوض العشب ذى الشكل البيضاوى .. وكانت كل نباتات الحديقة تتلألأ فى الضوء ، وقد غطتها طبقة فضية من الندى بفعل ضوء القمر .. وكان هناك

طريق عريض تحف به الازهار من الجانبين ، وتقطعه ظلال اشجار الورد التى تسندها العصى ..

وكان هذا الطريق المضىء النضر يمتد تحت الضبـــاب ، وكان يتلألأ فيه حصى مدبب .. وكان سقف حـــوض البرتقال المغلق يسطع من وراء اعالى الاشجار ، وكان الضباب يتصـاعد من خلف ربوة الحديقة وهو يزداد كثافة لحظة بعد أخـرى .. واصبحت الازهار رطبة بتأثير الندى ، بحيث اصبح من المستطاع أن يميزها المرء الواحدة عن الاخرى . وكان الضوء يمتزج بالظل فى ممـرات الحديقة بحيث ان الاشجار والممرات كانت تبدو كأنها مبان شفافة تهتز وتتموج من جراء ذبذبة حنون !

وفى ظل البيت ناحية اليمين ، كان كل شىء معتما لايمكن تمييزه، ويكاد يثير الرعب فى النفوس .. ولكن قمم اشجار البلوط ذات الشكل العجيب كانت تلمع فيما وراء ذلك ، مثـــيرة فى النفس شعورا غريبا وهى تنثر الى جوار البيت وفوقه هالة من الضـــوء الواضح ، بدلا من ان تتلاشى فى اجواز هـــذا الفضاء ذى الزرقة المعتمة ..

وقلت فجأة :

ـ هيا بنا نتنزه ..

فوافقت ماشا .. ولكنها اضافت قائلة ان على ان انتعل حذاء خشبيا حتى لا انزلق على الارض الرطبة

فقلت لها :

ـ ليس هذا ضروريا .. فسيعطينى سيرج ذراعه ..

قلت لها ذلك ، وكأنما سيمنعنى ذراع سيرج من ان تبتـــل قدماى ! ولكن مثل هذا العمل الجنونى كان يعتبر فى تلك اللحظة امرا مقبولا لا يثير الدهشة فى نفس كل منا نحن الثلاثة

ولم يكن سيرج قداعطانى ذراعه من قبل ـ وانا اسير معــه ـ وهاأنذا الان قد اخذته بنفسى ، فلم يبــد عليه أى اثر للدهشة .

ونزلنا نحن الثلاثة سلم الشرفة المؤدى الى الحديقة .. وكان كل هذا العالم ، وهذه السماء ، وهذه الحديقة ، وهـذا الهواء الذى كنا نستنشقه .. كل هـــذا لم يعـد يبدو فى نظرى كما عرفته من قبل ! ..

وحينما نظرت امامى فى ممر الحديقة الذى كنا نهم بالسير فيه ، دار بخاطرى اننا لن نستطيع ان نذهب ابعد من ذلك ، وان العالم ينتهى هنا ، وان كل شىء من حولى يجب ان يظل ثابتا على جموده دون تغيير فى جماله الحالى

ومع ذلك ، فكلما تقدمنا فى السير ، كان هذا الجدار المسحـور المصنوع من الجمال الخالص يتراجع امامنا ليفسح لنا الطريق .. وكنت حينئذ اجد نفسى مرة ثانية وسط اشياء مألوفة : الحديقة ، والممرات ، والاشجار ، واوراقها الجافة .. وكنا نعبـــر ــ اثناء سيرنا فى هذه الممرات ــ دوائر مضيئة تتلوها اخرى مظلمة .وكانت اوراق الاشجار الجافة تتهشم تحت اقدامنا ، واغصان الاشجار الحنون ترتطم بوجهى ..

***

وكان سيرج يمشى الى جوارى بخطوات بطيئـة منتظمة ــ فى تحفظ وحذر ــ تاركا ذراعى يستند الى ذراعه .. وكان القمر يطل علينا من السماء ، ويضىء وجوهنا من خلال اغصان الشجر ..

وتأملت سيرج لحظة ، ولم يكن هناك ولا شجرة واحدة فى ذلك الجزء من الممر الذى كنا نجتازه فى تلك اللحظة ، فبدا لى وجهـه واضحا فى ضوء القمر .. كان جميلا جدا ، وتنطق ملامحه بفيض من السعادة ..

وكان يقول لى : « هل انت خائفة ؟ »

فكان صدى هذه الكلمات يتـــردد فى نفسى ، وكأنه يقول لى : « احبك يا صغيرتى العزيزة ! احبك ! احبك ! » ..

وكانت نظرته تؤكد حبه لى .. وكذلك ذراعه ، وضوء القمر ،

والظل ، والهواء ، وكل شيء من حولنا ..

وطفنا هكذا بكل أرجاء الحديقة ، وماشا تسـير الى جوارنا بخطوات صغيرة متوثبة ، وقد بدا انها تتنفس بجهد لما تلاقيه من عناء وتعب ، وقالت لنا آخر الامر :

ـ يجب الان ان نعود !

وكنت اتألم كثيرا من اجلها .. اتألم كثيرا من اجل هذه المخلوقة المسكينة .. وقلت فى نفسي : « لماذا لايكون شعور ماشا كشعورنا؟ ولماذا لايكون المرء شابا وسعيدا على الدوام ؟ .. لشد ماينبثق الشباب من خلال ليلتنا هذه !

وعدنا الى البيت ، ولكن سيرج اطال البقاء معى بعـد ذلك ، ونسيت ماشا ان تذكرنا بأن الوقت كان متأخرا . ودار الحديث بيننا عن امور تافهة ، ونحن نجلس جنبا الى جنب ، فلم نشعـر بأنفسنا حتى كانت الساعة قد بلغت الثالثة صباحا !

ورحل سيرج مع مطلع الفجر ، بعد ان استأذن منا كما كان يفعل من قبل ، ولكننى كنت أعرف منذ ذلك اليوم انه صار ملكا لى دون شك ، واننى لن أستطيع ان ابتعد عنه ..

***

وحينما ايقنت اننى كنت احبه ، قصصت كل شيء على ماشا .. فسرها ذلك وتأثرت به ، ولكن هذه المرأة المسكينة لم تستطع أن تنام طيلة هذه الليلة .. أما انا ، فقد لبثت فترة طويلة اتمشى بعد ذلك فى الشرفة ، واطوف بأرجاء الحديقة ، وانا احاول ان اتذكر كل كلمة وكل شيء حدث بيننا .. ومرة اخرى ، اخذت اجوب ممرات الحديقة التى شاهدت نزهتنا الليلة معا

ولم يزر النوم جفنى فى تلك الليلة .. ولاول مرة فى حيـاتى شاهدت شروق الشمس وعرفت ما هو الفجر ، ورحت أسـائل نفسى : لماذا لايقول لى ببساطة انه يحبنى ، ولماذا يختلق الصعوبات، ولماذا يزعم انه عجوز بينما كل شيء بسيط جدا وجميل للغـاية ؟

لماذا نضيع هكذا وقتا ثمينا قد لايعود ابدا ؟ فليقل اذن انه يحبنى .. ليقل ذلك فى الفاظ صريحة ، وليأخذ يدى فى يده ، ويميل براسه على ، ويقول : أحبك ! .. ليخفض عينيه اذن ، ويحمر وجهه امامى من الخجل ، وسأقول له حينئذ كل شيء .. أو ربما من الافضل الا اقول له شيئا ، بل أحتضنه بين ذراعى وأجهش بالبكاء .. ولكن ، ترى ماذا يحدث لو اننى كنت مخطئة وكان لا يحبنى ؟

جالت هذه الفكرة فجأة بخاطرى ، فتملكنى الذعر لهذا الشعور .. ويعلم الله الى أين كان يمكن أن يؤدى بى هذا الشعور ... والواقع أن صدى خجلنا واضطرابنا حين قفزت ولحقت به بين أشجار الكرز ، كان ثقيلا على نفسى ويقبض قلبى !

وامتلأت عيناى بالدموع واخذت اصلى .. وقد راودتنى فى تلك اللحظة فكرة غريبة للغاية ، احيت الامل فى نفسى ، واشاعت فى قلبى الهدوء .. فقد قررت ان ابدا فترة من التقشف والزهد ، وان اختار يوم عيد ميلادى لاصبح خطيبة لسيرج

ولم اكن ادرى كيف ولماذا كان يمكن ان يتحقق ذلك .. ولكننى اعتقدت فى نفسى تلك اللحظة أن الامور ستسير على هذا النحو ..

ولما عدت الى غرفتى كان النهار قد أشرق تماما ، واستيقظ كل من فى البيت ..

الفصل الرابع

قبيل الزواج

أحلام ...

كنا فى وقت صيام المسيحيين الارثوذكس .. ولهذا لم يفاجأ احد بالبيت بمشروع الزهد والتقشف الذى قررت تنفيذه ..

ولم يأت سيرج ليرانا طيلة اسبوع باكمله .. ولم يدهشنى ذلك منه ، ولم يغضبنى او يقلقنى ، لفرط سرورى من انه لم يحضر .. اذ كنت لا أنتظره الا فى يوم عيد ميلادى ..

وفى كل يوم من ايام هذا الاسبوع ، كنت استيقظ مبكرة فى اللحظة التى يتأهب فيها الفـلاحون لاستئناف اعمال اليوم .. ثم اتنزه وحدى فى ارجاء الحديقة وانا افكر فى الماضى ، وفيما كان يجب على ان افعل حتى اجد نفسى راضية مسرورة فى المساء بعد قضاء يوم لم ارتكب فيه الخطايا ..

وخلال النهار ، كانت الخيول تشـد الى العربة لأنطلق بها مع ماشا وخادمة اخرى الى الكنيسة التى تقع على مسيرة ثلاثة فراسخ من بيتنا . وفى كل مرة كنت ادخل فيها الكنيسة ، كنت اتذكر أن المرء وهو بداخلهـا يدعو الله من اجل كل هؤلاء الذين يدخلونها وقلوبهم عامرة بخشية الله .. وكنت شديدة الحرص على أن ارتفع الى مستوى هذه الفكرة ، خاصة فى اللحظة التى كنت أرتقى فيها سـلم الكنيسة الذى يكسوه العشب ، وهى اللحظة التى لم يكن يوجد بالكنيسة خلالها الا نحو عشرة من الفـلاحين والزهاد الذين جاءوا — مثلى — يتأهبون للعبادة فى فترة الصوم والتقشف هذه .. كما كنت اعنى كل العناية بأن ارد على تحيتهم فى تواضع وشغف .. وكنت اقترب بنفسى من الدرج الذى تودع فيه الشـموع — وكان ذلك يعتبر فى نظرى عملا مجيدا — فيناولنى جندى عجوز كان يعمل

خادما لكنيسة بعض الشموع ، فاذهب بعد ذلك واضعها فى خشوع امام الصور المقدسة ..

***

وحينما كنت اقترب من باب المكان المقدس ، كنت استطيع أن المح « المفرش » ــ الذى كانت والدتى قد صنعته بيديها ــ موضوعا فوق المذبح وعليه صور دينية ، واخرى لملائكة تحف بها النجوم ، وحمامة حولها هالة من الذهب ..

وكان هذا « المفرش » يبدو لى كبيرا جدا ايام طفولتى ، كماكانت هذه الحمامة تستلفت نظرى بوجه خاص .. وكنت المح فيما وراء المكان الذى ترتل فيه التراتيل ذلك الحوض الذى طالما امسكت فيه باطفال الفلاحين فى مزرعتنا ليعمدهم القسيس ، والذى كنت انا نفسى قد عمدت فيه . وكان القسيس العجوز يبدو مهيبا مؤثرا ، وقد ارتدى عباءته المصنوعة من قماش كان يومها يغطى نعش والدى .. ثم يأخذ فى ترتيل الطقوس بنفس الصوت الذى كان يرتل به الطقوس فى بيتنا وانا طفلة صغيرة ، واثناء تعميد شقيقتى سونيا ، وخلال اقامة الشعائر الجنائزية على جثمان والدى ثم والدتى ..

وكنت اسمع صوتا متكسرا ومألوفا لدى يتصاعد من بين المرتلين ، وكان ذلك صوت القسيس الذى يشرف على انشاد الترتيل .. وكنت ارى فى كل مرة عجوزا محدودبة الظهر كانت تحرص على حضور كل الطقوس ، وقد استندت الى الجدار وامسكت بين يديها الشمعتين بمنديل باهت اللون .. وراحت تتأمل احدى الصور الدينية بعينين تفيضان بالدموع ، وتتمتم بصلوات غامضة كانت تنساب متتابعة من فمها الخالى من الاسنان ..

ولم يكن الفضول وحده ــ أو مجرد الذكريات ــ هى التى تقرب الى نفسى كل هذه الاشياء وهذه المخلوقات ، بل كانت هذه جميعا تبدو فى نظرى كبيرة مقدسة حافلة بالمعانى العميقة ..

وكنت أعير اذنا واعية لكل كلمة من العظات والصلوات التى

أستمع اليها ، محاولة جهد طاقتي أن أجعل شعوري يتفق ومغزى هذه الكلمات .. واطلب الى الله ان ينير بصيرتي حينما كنت لاأفهم بعض معانيها ، أو ابدل مالم اكن اسمعه منها جيدا بصلوات من عندي ..

وفي اللحظة التي كانت تتلى فيها صلوات الغفران ، كانت ذكريات ماضي تطفو في نفسي .. وكان ماضي طفولتي البريئة يبدو في نظري حالك السواد بالقياس الى حالة الصفاء التي كانت تنعم بها نفسي في تلك اللحظة .. فكنت ابكي على نفسي ، ولكنني كنت اشعر في نفس الوقت بأن ذنوبي جميعا قد غفرت لي .. وحتى لو انه كان لا يزال هناك من الذنوب ما اندم عليه ، فان ندمي عليها كان خليقا بأن يكون اكثر لطفا واخف ايلاما ..

وعند انتهاء هذه الطقوس .. وفي اللحظة التي كان ينطق فيها القسيس بهذه الكلمات : « لتشملكم جميعا بركة الرب » ، كنت اشعر براحة نفسية ، بل وجسمية ، تسري في كياني .. كما لوكان هناك تيار من النور والدفء قد غمر قلبي فجأة ..

وكان القسيس يقترب مني في بعض الاحيان — قبل رحيلي — ويسألني قائلا :

— متى احضر الى منزلكن لاقامة بعض الطقوس ؟

فكنت اقول له في انفعال :

— اشكرك يا سيدي القسيس على ما تريد ان تفعله من أجلي ، وسأحضر الى هنا بنفسي في العربة او سيرا على الاقدام ..

— آه ! .. انك تريدين بهذا أن تتكبدي مزيدا من المشقة والجهد ..

فكنت لا اعرف بماذا اجيبه مخافة ان اقع في خطيئة الغرور ..

وفي الايام التي كانت ماشا فيها لا ترافقني ، كنت اصرف العربة من امام الكنيسة ، واعود وحدي الى البيت سيرا على الاقدام ، واحيي في تواضع عميق كل من كان يقابلني في طريقي ، وانا اتحين

الفرص لامد الى الآخرين يد المساعدة واسـدى اليهم النصح ، واضحى من اجلهم .. فاشـارك فى رفع عربة غاصت عجلاتها فى الوحل ، او اهدىء طفلا يصرخ عجزت امه عن تهدئته .. وكنت اخوض فى بعض الاحيان فى الوحل لأفسح الطريق للآخرين ..

***

وذات مساء ، سمعت وكيل اعمالنا يقول لماشا :

ـ ان هناك فلاحا يدعى سيمون جاء يطلب منى بعض الخشب ليصنع منه نعشا لابنته ، وروبلا واحدا يقيم لها به طقوس الجنازة فأجبته الى ما طلب ..

فسألته قائلة :

ـ وهل هو فى فقر شديد ؟

ـ انه فقير للغاية يا آنسة ، ويعيش على الكفاف ..

فانقبض قلبى على الفور ، ولكننى كنت مسرورة فى نفس الوقت لاننى علمت ذلك .. فأفهمت ماشا اننى ذاهبة للنزهة ، وصعدت الى غرفتى فاخذت كل ما كان فيها من مال ـ ولم يكن كثيرا ولكنه كان كل ما املك ـ ثم رسمت علامة الصليب ، ورحلت وحدى الى القرية ميممة شطر كوخ سيمون .. وكان فى طرف القرية ..

***

لم يكن قد رآنى احد حينما اقتربت من نافذة الكوخ .. فوضعت عليها ما معى من مال ، ثم طرقت مصراعها فى رفق .. فسمعت فى تلك اللحظة صريرا صادرا من باب الكوخ ، وبرز منه شخص نادانى ، ولكننى كنت ارتعد من الخـوف وكاننى قد ارتكبت جرما فهربت عائدة الى البيت !

وسالتنى ماشا اين كنت وماذا كنت افعل ؟ .. ولكننى لم افهم حتى ما كانت تقول ، ولم انطق بكلمة واحدة .. وفى تلك اللحظة ، كان كل شىء يبدو فى نظرى تافها ولا طائل تحته ..

واغلقت على نفسى باب غرفتى ، واخذت اذرع ارضها طولا وعرضا ،

وانا اشعر بأننى لا أريد ان افعل شيئا أو أفكر فى شىء . وكنت لا استطيع ان اتبين بوضوح ما يعتمل فى أعماق نفسى ، وانا اتصور مدى سرور هذه الاسرة المعدمة ، والكلمات التى نطق بها افرادها حيال ذلك الذى وضع النقود على قاعدة النافذة .. واصبح يحز فى نفسى الآن اننى لم اعطهم هذا المال بنفسى .. وكنت اتساءل عما عسى ان يقوله سيرج لو انه علم بما فعلت ، ولكن كان يملؤنى سرورا انه لن يعرفه ابدا !

لقد كانت تغمرنى فرحة عظيمة ، ويملؤنى اعتقاد بأننى ــ انا والناس جميعا ــ بشر غير كاملين .. وكنت انظر الى نفسى والى الاخرين فى كثير من العطف الى حد ان فكرة الموت ذاتها بدت لى كرؤيا من السعادة

اننى كنت ابتسم ، واصلى ، وابكى .. واحببت فجأة البشر جميعا فى تلك اللحظة ، كما احببت نفسى بعنف غريب .. ومددت يدى الى الانجيل وقرات منه فقرات .. فاذا بكل ما كنت اقراه منه يصبح اكثر وضوحا وايسر فهما .. واذا بقصة تلك الحياة الالهية تصبح اكثر بساطة بالنسبة الى واشد تأثيرا فى نفسى .. واذا بالمشاعر والافكار التى كنت اكتشفها أثناء هذه القراءة تزداد رهبة وعمقا فى نظرى .. ولكن ، كم بدا لى كل شىء واضحا وسهلا ــ كذلك ــ حينما اغلقت الكتاب المقدس ، ونظرت من جديد الى الحياة التى كنت ملقاة فيها والتى كنت اتأملها ..

وبدا لى من المحال الا أعيش عيشة طيبة ، وأن من اليسير ان احب الناس جميعا ، وان يحبنى كل فرد منهم ، خاصة وانهم كانوا جميعا على قدر من الرقة بازائى .. حتى سونيا التى كنت أتابع دروسى معها ، اصبحت مختلفة تماما ، وحريصة على أن تفهم كل شىء ، وشغوفة بارضائى ، وبألا تفعل ما من شأنه أن يغضبنى . وكان الاخرون يعاملوننى نفس المعاملة التى كنت اعاملهم بها ..

***

وانتقلت بعدئذ الى أعدائى لألتمس منهم الصفح قبل اليوم

العظيم يوم عيد ميلادى ، فتذكرت فقط آنسة من جيراننا كنت قد سخرت منها منذ عام أمام بعض الضيوف فكفت عن زيارتى .. فكتبت اليها خطابا أعترف فيه بخطئى وأرجوها أن تصفح عنى . وردت على جارتى تقول لى انها قد صفحت عنى ، وانها بدورها تطلب منى الصفح .. فطفرت من عينى دموع الفرح وانا اقرأ تلك السطور البسيطة المملوءة بالمشاعر العميقة المؤثرة ..

وبكت خادمتى ايضا حينما طلبت منها الصفح .. فتساءلت حينئذ عن السر فى انهم جميعا كانوا على طيبة كبيرة معى ، وفى اننى كنت استحق منهم كل هذا العطف ؟..

وحينئذ ، تذكرت سيرجلا اراديا ففكرت فيه ، وكنت لا استطيع ان افعل غير ذلك .. ولم أعتبر أن هذا الشرود من جانبى يعد خطيئة .. والواقع اننى لم افكر فيه على الاطلاق بنفس الطريقة التى فكرت فيه بها فى تلك الليلة التى اكتشفت فيها لاول مرة انى احبه .. وانما كنت افكر فيه تماما كما كنت افكر فى نفسى ، واشركه على الرغم منى فى كل ما يتعلق بمستقبلى ، وكان تأثيره المسيطر على نفسى ينمحى من مخيلتى تدريجا .. اذ اصبحت اشعر اليوم باننى مساوية له ، وكنت افهمه حق الفهم وانا فى قمة البناء المثالى الذى كنت أحلق فوقه ، وصار مفهوما ــ بالنسبة الى ــ كل ماكان يبدو لى غريبا فيه .. وادركت اليوم فقط معنى تلك الفكرة التى كان قد عبر لى عنها ، وهى ان السعادة فى أن يعيش المرء من أجل الاخرين ، واصبحت اقره تماما على هذا الرأى

وكان يبدو لى اننا سننعم معا بسعادة لا حد لها .. وكنت لا افكر فى سفر الى الخارج ، أو بهرجة ، أو مجتمع راق ، بل حياة هادئة : حياة اسرة فى الريف ، وانكار دائم لارادتى الذاتية ، وحب متبادل مستمر ، واعتراف دائم بجميل العناية الالهية ، وشكر مطلق لله على معونته الحلوة

***

وفى اليوم الموعود ، يوم عيد ميلادى ، قمت بالطقوس التى كنت

انوى ان اقوم بها فيه وقد طفح قلبى بالسعادة ، حتى أننى عـدت من الكنيسة يومئذ وفى نفسى الكثير من الهواجس .. فكنت أشعر بالخوف من الحياة ، ومن كل احساس ، ومن كل ما يمكن ان يعكر صفو هذه السعادة ..

وما كدنا ننزل من العربة أمام درج الشرفة حتى سمعت جلبة عربة سيرج المعروفة ، وهو يمر من فوق « الكوبرى » وسرعان ما لحت سيرج نفسه ..

وتلقيت تهنئته ، ثم دلفنا معا الى الصالون .. ولم أشعر قط منذ ان عرفته بمثـل الهدوء الذى كنت اشـعر الان به وأنا الى جواره ، كما لم اشعر أبدا باستقلال كهذا الذى شعرت به فى الصباح .. وكنت اشعر حينئذ بأننى احمل فى نفسى عالما جديدا بأسره ، ولم اكن اشعر وانا الى جواره بأدنى اضطراب . ومع ذلك ، فربما فهم ما كان يعتمل فى نفسى لانه أبدى نحوى عطفا واحتراما لا حد لهما .. وكنت قد اقتربت من البيانو ، ولكنه اغلقه ووضع مفتاحه فى جيبه ثم قال :

ــ لا تفسدى هذه الحالة النفسية التى اراك فيها الان ، فهناك موسيقى تتردد فى نفسك لا يدانيها اعذب الانغام فى هذا العالم !

وشعرت نحوه بالاعتراف بالجميل لكلامه هذا .. ولم يضايقنى كثيرا ــ فى نفس الوقت ــ انه فهم بسهولة ، وفى أتم وضـوح ، كل ما كان ينبغى أن يظل سرا فى نفسى بالنسبة لكل الاخرين ..

وما أن نطق سيرج بهذه الكلمات ، حتى نظر الى ماشا .. ثم القى على نظرة سريعة كما لو كان يخشى أن يلاحظ على وجهى شيئا من الانفعال ، ولكن لم يبد على أثر للدهشة أو الاضطراب ، ولم اسأله حتى عما اذا كان غيابه سيكون لوقت طويل ..

***

لقد كنت اعرف انه سيقول لى هذا الكلام ، وكنت أعرف ايضا انه لن يسافر .. ولا اسـتطيع الان ان أفسر كيف عرفت ذلك ،

ولكنه كان يبدو لى فى هذا اليوم المشهود اننى كنت اعرف كل ما كان وكل ما سيكون .. وكنت غارقة فى حلم من تلك الاحلام السعيدة التى يتاح فيها للمرء نوع من الرؤيا المشرقة ، تكشف له عن المستقبل وتكشف له عن الماضى

واراد سيرج ان يرحل بعد الغداء مباشرة ، ولكن ماشا كانت قد ذهبت لتغفو قليلا .. فاضطر الى الانتظار حتى تستيقظ ليودعها ..

وكانت الشمس تغمر ارض الصالون فذهبنا الى الشرفة ، وما كدنا نجلس حتى بدات ـ فى هدوء تام ـ ذلك الحديث الذى كان يتوقف عليه مصير حبى .. بداته فى نفس اللحظة التى جلست فيها امامه وجها لوجه ، ولم ترد فيه كلمة واحدة اكثر مما كان ينبغى ان يقال ، ولم يتسرب اليه شىء كان يمكن ان يعوق ما كنت اريد ان اقوله .. ولست استطيع انا نفسى أن ادرك من اين جاءنى هذا الهدوء ، وهذا الاصرار ، وهذه الدقة فى التعبير .. بل كان يبدو لى أنه لم أكن انا التى تتكلم ، وانما كان هناك شىء اخر مستقل تماما عن ارادتى هو الذى كان يدفعنى الى الكلام ..

كان سيرج لا يزال جالسا أمامى ، فانتزع غصنا من احدى شجيرات الورد .. انتزعه فجاة بما فيه من أوراق . وحينما هممت بأن اتكلم ، ترك هذا الغصن جانبا وغطى وجهه بيده .. وهى حركة اما أن تدل على انه رجل هادىء كل الهدوء ، أو تدل على انه كان ـ على النقيض ـ يعانى اضطرابا بالغا ..

وبدات حديثى بلهجة تنبض نبراتها بالتصميم ، فقلت له :

ـ لماذا ترحل ؟

وتوقفت لحظة ، وانا انظر مباشرة فى عينيه ..

فلم يجب على سؤالى فى الحال ، وتمتم قائلا ـ بعد لحظة ـ وقد غض من بصره :

ـ ان لدى اعمالا ..

وفهمت انه كان من العسير عليه أن يكذب فى الرد على سؤال وجهته اليه بمثل هذه الصراحة ، وقلت له :

ـ انصت الى .. انك تعرف ما لهـــذا اليوم من قيمة لدى ، وهو من مختلف الوجوه يوم عظيم .. واذا ما ســـألتك ، فليس ذلك لمجرد اننى ابين لك مدى اهتمامى ، فانت تعـلم اننى آلفك واحبك ، وانما اسالك لانه يجب على ان اعرف لماذا ترحل ..

فأجابنى قائلا فى هدوء :

ـ انه يصعب على كثيرا ان اقول لك الحقيقة ، وان أقول لـك لماذا ارحل .. وقد فكرت فيك مليا ـ وفى نفسى ـ خلال هـــذا الاسبوع ، فقررت انه يجب على ان ارحل . انك تفهمين لمـــاذا فاذا كنت تحبيننى فلا تسألينى ..

ومسح سيرج جبينه بيده ، ثم غطى عينيه بنفس هذه اليـد ، واضاف قائلا : « ان هذا صعب على .. ولكنك تفهمين يا كاتيا »

فاخذ قلبى يدق فى صدرى بعنف .. وقلت له :

ـ اننى لا استطيع ان افهم .. لا اســتطيع ! ولـكن .. أنت ، تكلم .. بحق السماء ، وبحق هذا اليوم الذى نحن فيه ... تكلم، ففى استطاعتى ان افهم كل شىء فى هدوء ..

فغير موضعه .. وتطلع الى ، ثم امسك بغصن شـجرة الورد فرفعه قليلا ، ثم قال ـ بعد لحظةصمت ـ بصوت كان‌يحاول عبثا ان يجعله ثابتا هادىء النبرات :

ـ سأحاول مع ذلك ان ادلى اليك ببعض المبررات على الرغم من ان ذلك يبدو لى سخيفا ، ويكاد يكون مستحيلا أن أعبر عنـه بالالفاظ ، فضلا عن انه صعب بالنسبة الى !

وما كاد ينتهى من هذه الكلمات ، حتى قطب ما بين حاجبيـه كأنما يشعر بألم جسمانى .. وقلت له :

ـ حسنا ؟..

فقال :

ـ تصورى أن هناك رجلا عجوزا اتعبته الحياه ، ولنفترض ان اسمه « أ » .. وان هناك سيدة ـ ولنقل ان اسمها « ب » ـ شابة ، سعيدة ، لا تعرف بعد شيئا عن الحياة .. وأن هذا الرجل كان يحبها كابنة بسبب علاقات عائلية معينة .. وكان يخشى ان يتطور حبه هذا الى حب من نوع اخر ..

***

وصمت سيرج فلم اقاطعه .. وفجأة ، استأنف حديثه بصوت حاسم النبرات ـ ودون أن ينظر الى ـ قائلا : « اذ يعتقد ان « ب » شابة صغيرة السن ، وانها لا تزال تنظر الى الحياة فى غير جد ، وانه قد يحدث بسهولة كبيرة ان يحبها ، وان « ب » قد تتسلى بهذا الحب . ولاحظ ذات يوم ان شعورا شديد الوطاة ـ كانه الندم ـ قد تسرب الى نفسه فتملكه الذعر .. وخشى ان تفسد علاقات الصداقة الطيبة ، فقرر ان يبتعد قبل ان تتغير طبيعة هذه العلاقات ..

وما كاد سيرج يتم عبارته حتى وضع يده على عينيه فى اهمال ظاهر ..

فقلت على الفور وانا اكبت انفعالى :

ـ ولماذا كان يخشى ان يتطور حبه الى حب اخر ؟ ترى هل بدت له غير جادة فى حبها ..؟!

فأجابنى سيرج قائلا ، وقد بدا عليه انه جرح :

ـ انك صغيرة السن ، ولكنى لم اعد كذلك .. وقد يحلو لك ان تمزحى بالحب ، ولكن يلزمنى انا شىء اخر ..

وصمت قليلا ثم اضاف يقول : « هذا هو ما قاله « أ » ، ولكن هذا كله سخف ، وانت تفهمين الان لماذا ارحل .. كفى كلاما فى هذا الموضوع .. ارجوك ! »

فقلت والدموع تهز صوتى :

ـ كلا ، كلا .. بل لنتكلم فيه .. فهل كانت تحبه ام لا ؟

ولم يجب سيرج .. فاستطردت اقول : « وان كان لا يحبها ، فلماذا كان يلعب معها كما يلعب مع صبية صغيرة ؟

فأجابني مقاطعا :

ــ نعم ، نعم .. ان « أ » كان مخطئا ، ولكن هذا الان قد انتهى، وافترقا وهما صديقان متفقان !

فسألته قائلة ، وانا مذعورة مما كنت أقول :

ــ ولكن هذا امر بشع .. أليست هناك نهاية أخرى ؟

ــ بلى .. هناك نهاية أخرى ..

ورفع يده عن وجهه المضطرب ، ونظر الى وهو يقول :

ــ بل هناك نهايتان مختلفتان .. ولكن ، بحق السماء ، لاتقاطعيني بعد الان وانصتي الى فى هدوء !

***

ونهض سيرج ، وقد علت شفتيه ابتسامة كئيبة مؤلمة ، واستطرد قائلا : « ان البعض يقولون ان « ا » قد جن اذ أحب « ب » حبا غير منطقى وصرح لها به ... ولكنها اكتفت بأن سخرت منه ، فالامر بالنسبة اليها لم يكن الا مزاحا ، اما بالنسبة اليه فكان مشكلة حياته بأسرها » ..

فارتجفت .. وحاولت ان أقاطعه لاقول له انه ينبغى الا يتكلم نيابة عنى .. ولكنه منعنى من ذلك ووضع يده على يدى ، وانهى حديثه قائلا فى صوت مضطرب : «انتظرى .. يقول أناس اخرون انها أشفقت عليه ، وتخيلت هذه اليائسة التى لم تعرف الدنيا بعد انها تستطيع حقا أن تحبه ، فارتضت أن تكون زوجة له .. واعتقد هو ــ كالمجنون ــ ان حياته يمكن أن تبدأ من جديد .. ولكنها لاحظت هى نفسها انها كانت تخدعه ، وانه كان يخدعها ..

وكف سيرج عن الكلام لحظة ، ثم قال فى ايجاز وقد بدا عليه انه لم يكن فى حالة تسمح له بأن يقول اكثر من ذلك : « كفانا كلاما فى هذا الموضوع ! »

وجاء ليجلس امامى من جديد ، وهو يكرر قائلا : «كفى كلاما»! وكان يبدو واضحا انه كان يترقب بلهفة كلمة منى .. وكنت أريد حقا أن اتكلم ، ولكننى كنت عاجزة عن الكلام ، فقد كان هناك شيء يجثم على صدرى ..

ورفعت اليه عينى فرأيته شاحبا ترتعد شفته السفلى ، وكنت اقاسى من اجله اشد الالم .. فبذلت جهدا جديدا ، ونجحت فجاة فى ان اقطع الصمت الذى كان يشلنى ، وقلت بصوت بطىء مركز كنت أخشى أن يتداعى فيعاودنى العجز عن الكلام :

– ثمة نهاية ثالثة لهذه القصة ..

***

وتوقفت عن الكلام ، ولكنه ظل صامتا .. فأردفت قائلة :

– وتتلخص النهاية الثالثة فى ان « ا » لم يكن يحب « ب » ، فسبب لها الما .. الما كبيرا ، وكان يعتقد ان له الحق فى ذلك ، فرحل .. بل فعل ما هو اكثر من ذلك ، ففاخر بما فعل ..

وسكت لحظة قلت بعدها : « ان المزاح لم يحدث من ناحيتى بل من ناحيتك ، فقد أحببتك من أول يوم .. »

وحينما نطقت بكلمة « أحببتك» ، تغير صوتى بطريقة لا ارادية .. وتحولت فجأة نبرته البطيئة المركزة الى نوع من الصياح البدائى اثار الذعر فى نفسى !

كان سيرج واقفا امامى شاحبالوجه ، وقد تضاعف اضطراب شفتيه ، وانحدرت على خده دمعتان كبيرتان .. فصحت اقول فى الم وانا اختنق من الغيظ ومن دموعى المحبوسة :

– انك مخطىء فى تصوراتك واوهامك ..

ونهضت لابتعد ، وانا اضيف قائلة : « ولماذا .. كل هذه الاوهام ؟ ... »

ولكنه اندفع نحوى .. واسند راسه الى ركبتى ، واخذت شفتاه المرتجفتان تقبلان يدى المضطربتين ، بينما راحت عيناه

تغرقهما بالدموع وهو يتمتم قائلا :

ـ آه ! يا الهى ! يا الهى ! لو أننى ..

واخذت أردد فى صوت مرتعش :

ـ لماذا ؟.. لماذا ؟..

ولم تكد تنقضى خمس دقائق ، حتى كانت سونيا تسرع الى الطابق الاعلى حيث كانت ماشا ، ثم تطوف أرجاء البيت كله وهى تصيح قائلة :

ـ ان كاتيا ستتزوج سيرج ميخايلوفتش ..

الفصل الخامس

حفل الزفاف

زواج بلا ضوضاء

لم يكن هناك ما يدعو لارجاء زفافنا ، ولم يكن أحد منا يرغب فى ذلك .. الا ان ماشا كانت تريد الرحيل الى موسكو لشراء بعض الحاجيات والتوصية على ثوب الزفاف . وكانت والدة سيرج تلح على ابنها فى ان يشترى عربة جديدة وأثاثا جديدا وان يبدل ستائر المنزل قبل الزواج ، ولكننا اصررنا على ان يتم ذلك فيما بعد ، وان يعقد زواجنا بعد عيد ميلادى بأسبوعين بلا ضوضـــاء ، ولا ثوب للزفاف ، ولا فتيات شرف ، ولا عشاء أو شمبانيا ، ودون شىء من الملحقات التقليدية للزواج ..

وقص على سيرج كم كانت امه غاضبة لان الزفاف سيتم هكذا بلا موسيقى ولا سيل من صناديق الهدايا ، ودون أن يجدد البيت بأسره كما حدث قبيل زفافها الذى تكلف ثلاثين الفا من الروبلات .. وكم بحثت من وراء ظهره فى الخزائن والصناديق والصواوين ، وعقدت اجتماعات واجريت مشاورات جدية مع « ماريوشكا » ـ مدبرة المنزل ـ بشأن بعض الابسطة والستائر « والصـــوانى » اللازمة ..

وفى بيتنا ، كانت ماشا تفعل نفس الشىء مع خادمتى «كوزمينشنا» ولا تقبل مزاحا فى هذا الشأن .. وكانت مقتنعة تماما بأننى حين كنت اتكلم مع سيرج بشأن مستقبلنا ، فاننى لم اكن اتبادل معـــه سوى الحديث الناعم الحلو الذى لا يغنى ولا يسمن ـ كما هـــو مألوف فى مثل موقفنا ـ وكان من رأيها أن جوهر سعادتنا نفســه كان لا يتوقف الا على روعة حياكة ثيابى وجمال اثاثى ، وعلى مدى المهارة الفنيـــة التى تعد بها « الاغطيـــة » والمناشف والســـتائر وما اليها ..

وفى كل يوم ، كانت تحـدث عدة اتصـــالات غريبـــة بين بيتى « بوكروفسكى » و « نيكولسكى » بشأن الكيفية التى ترتب بها الامـور .. ومع ان جميع مظاهر العلاقات الطيبـــة الحنون كانت متوفرة بين ماشا ووالدة سيرج ، فقد كنا نشعر بأن بينهما شيئا من الخلاف فى وجهات النظـر .. كان يبـدو احيانا فى صـــورة ديبلوماسية فيها كثير من الرقة والمهارة !

وكانت « تاتيانا سيمينوفنا » والدة سيرج التى توثقت معرفتى بها ، سيدة متعجرفة من العهد البائد ، وربة بيت قاسية .. ولم يكن سيرج يحبها كما يجب ان يحب الابن امه وحسب ، بل كان يرى فيها أذكى وافضل وارق والطف امراة فى العالم !

والواقع ان والدة سيرج كانت معنا دائما ــ ومعى انا بوجـه خاص ــ على قدر كبير من الطيبة ، وكانت تبدى فرحها لزواج ابنها .. ولكنى حينما اصبحت خطيبة لهذا الابن ، بدا لى انها كانت تريد ان تشعرنى بأنه كان يستطيع ان يتزوج فتاة افضل منى ، وان على الا انسى ذلك ابدا .. فكنت ادرك هذا جيدا واوافقها على هذا الراى !

***

وفى هذين الاسبوعين الاخيرين ، كان كل منا يرى الآخر كل يوم .. اذ كان سيرج يأتى لتناول العشاء ويبقى فى بيتنا الى منتصف الليل .. وعلى الرغم من انه كان يقول لى كثيرا ــ وكنت اعرف انه يصدقنى القول ــ انه لا يستطيع ان يعيش بدونى ، فانه كان لا يقضى معى ابدا النهار كله ، وكان يتصرف بطريقة يستطيع معها ان يتابع عنايته باعماله ..

وظلت علاقتنا الخارجية حتى يوم الزفاف كما كانت من قبل ، وظل الحديث يجرى بيننا بكلفة .. وكان لا يقبل حتى يدى ، ويتجنب الفرص التى كانت تسنح له لينفرد بى .. بل ولا يحاول ان يخلق هذه الفرص ، وكأنه كان يخاف ان يطلق العنان لذلك

الحنان الكبير الخطير الذى كان يحمله فى نفسه

وكان الجو رديئا طيلة هذه الايام ، فقضينا اكثر وقتنا معا فى الغرفة ، وكان الحديث يدور بيننا فى الركن الواقع بين البيانو والنافذة

وذات يوم ، قال لى بينما كنا نجلس وحدنا معا ـ فى هذا الركن ـ فى ساعة متاخرة :

ـ هل تعرفين ان هناك شيئا اريد ان احدثك عنه منذ وقت طويل ، ولم انقطع عن التفكير فيه وانت تعزفين على البيانو ؟

ـ لا تقل شيئا ، فانا اعرف كل شىء ..

ـ احقا لا داعى للكلام ؟

ـ اذا كنت ترى انه من الضرورى ان تحدثنى عنه فلا بأس ..

ـ هل تذكرين حينما قصصت عليك قصة « ا »، « ب » ؟

ـ وكيف لا اذكر هذه القصة ؟ .. وينبغى ان نسر لانها انتهت هكذا ...

لقد اوشكت ان احطم سعادتى بيدى ، ولكنك انقذتينى ... واسوأ ما فى الامر اننى كنت اكذب حينئذ ، وان ضميرى ليشعر بذلك واريد اليوم ان أقول لك كل شىء ..

ـ آه ! لا تفعل ذلك رحمة بى !

فقال لى وهو يبتسم :

ـ لا تخافى شيئا ، بل يجب على فقط أن أبرز موقفى .. فحينما بدات معك الكلام كنت أريد أن اتناقش ..

ـ ولماذا نتناقش ؟ ان من واجبنا الا نتناقش ابدا

وصمت لحظة وهو ينظر الى ثم قال :

ـ وبعد ، فلم يكن ما كنت أقوله مع ذلك سخفا ، اذ الواقع انه كان لدى ما اخشاه ، وكنت على حق فى ذلك ، فانى آخذ منك كل شىء ولا اعطيك الا القليل .. انك لا تزالين صغيرة ، وانت البرعم الذى لم يتفتح بعد ، وتحبين لاول مرة ، بينما انا ...

فصحت قائلة :

ــ آه ! نعم ! قل لى الحقيقة اذن ..

ولكننى سرعان ما شعرت بالخوف من اجابته فاضفت قائلة :

ــ كلا ، كلا .. لا تقل لى شيئا !

فأدرك على الفور ما كنت افكر فيه ، وقال :

ــ تريدين اذن ان تعرفى اذا كنت قد احببت من قبـــل ؟.. اليس كذلك ؟.. فى وسعى ان اخبرك بذلك.. كلا ، اننى لم احب .. ولم اجرب ابدا مثل هذا الشعور ... ولذلك ، فقد رايت انه كان يجب على ان افكر مليا قبل ان اقول لك اننى احبك ... ماذا اعطيك ؟ الحب ؟ هذا صحيح ..

فقلت وانا انظر مباشرة فى عينيه :

ــ وهل الحب شىء قليل ؟

ــ نعم .. انه شىء قليل يا صديقتى .. قليل عليك . انلديك الجمال والشباب ، وكثيرا ما تمنعنى السعادة من النوم أثناء الليل فلا اكف عن التفكير فى كيفية معيشتنا معا .. لقد عشت طويلا .. ولكن يبدو لى مع ذلك أننى لم التق بالسعادة الا منــذ أيام ، وأن حياة حلوة هادئة تنتظرنى فى بيتنا المنعزل ، مع امكانيـــات واسعة لفعل الخير من أجل فلاحينا الذين يســهل كثيرا تحقيق الخير لهم والذين لم يألفوا كثيرا أن يفعل الخير من اجلهم .. ثم ان هناك العمل ، العمل الذى يعرف الجميع أنه ينتج عنه دائمـا بعض النفع .. وهنـــاك ايضا التسلية ، والطبيعة ، والكتب ، والموســـيقى ، وعطف صادر عن قلب مفعم بالحب .. تلك هى السعادة ، وهى سعادة أســمى بكثير عن كل ما كنت احلم به .. وهناك ، فوق كل ذلك ، صديقة مثلك ، وربما أسرة ، وباختصار : كل ما يمكن للرجل ان يشتهيه فى هذه الدنيا !

فقلت له فى ايجاز :

ــ نعم ..

فعاد يقول :

ــ نعم بالنسبة الى .. انا الذى تجاوزت مرحلة الشباب ، ولكن انت .. انك لم تعيشي بعد ، وكان من المحتمل أن تجرى وراء السعادة فى شيء اخر ، وربما كنت تجدينها فى هذا الشيء ..

ــ كلا .. اننى لم ارغب ابدا فى شيء ، ولم احب شيئا كما احببت هذه الحياة العائلية الحلوة ، وقد اخبرتنى منذ قليل بما افكر فيه وما اتمناه وأرجوه ..

فابتسم وقال :

ــ ان الامور تبدو لك هكذا يا صديقتى ، ولكن ما قلته يعتبر شيئا قليلا بالنسبة اليك ..

وسكت لحظة قصيرة ، ثم كرر قائلا وقد بدت على محياه علامات التفكير :

ــ ان لديك الجمال والشباب ..

ومع ذلك فقد ضقت بما قال ، لاننى كنت ارى انه لا يريد ان يصدقنى ، ولاننى فهمت انه كان يبدو عليه انه يلومنى على جمالى وشبابى .. فقلت له فى شيء من الغضب :

ــ قل لى لماذا تحبنى ؟ .. الشبابى .. أم من اجلى انا نفسى ؟

فأجابنى قائلا وهو يتأملنى بنظرة فاحصة كلها اغراء :

ــ لست أدرى ، ولكننى أحب ..

فلم اقل شيئا ونظرت فى عينيه بحركة لا ارادية .. وفجأة ، حدث لى شيء غريب : فقد كففت عن رؤية ما حولى ، وانمحى وجهه من امامى .. ولم اعد اميز غير بريق عينيه اللتين كانتا امام عينى مباشرة .. ثم بدا لى ان عينيه تنفذان الى قلبى ، واصبح كل شيء غامضا فجأة .. ولم اعد ارى شيئا على الاطلاق ، واضطررت الى ان اغمض عينى قليلا لانتزع نفسى من هذا الشعور الممزوج بالمتعة والفزع والذى كانت نظرته تثيره فى نفسى

***

وغدا الجو صحوا فى مساء اليوم السابق ليوم زواجنا ..

واشرقت علينا اول امسية ربيع صحوة بعد هذه الامطار التى بدا بها فصل الصيف .. كانت السماء صافية شاحبة ، وذهبت لانام وانا افكر فى أن الجو سيكون جميلا فى اليوم التالى ، يوم عرسنا

واستيقظت فى ذلك الصباح والشمس فى وجهى وانا اشعر بأنه اليوم المشهود .. وكأنما كان ذلك كفيلا بأن يثير الفزع والدهشة فى نفسى . ونزلت الى الحديقة ، وكانت الشمس قد أشرقت منذ لحظات واخذت تسطع من خلال اشجارالتيليوالقائمة فى الممر والتى كانت أغصانها المصفرة تنفض اوراقها وتغمر به الممر .. ولم يكن من المستطاع ان يجد المرء سحابة واحدة فى هذه السماء البـاردة الصافية ..

وقلت اسأل نفسى : « ايمكن حقا ان يكون هذا هو اليوم الذى كنت أحلم به ؟ .. وهل من الممكن الا استيقظ هنا غدا ، وانما فى بيت « نيكولسكى » هذا بأعمدته ، وهو بيت غريب الآن بالنسبة الى ! هل حقا اننى انتظره واترقب وصوله هنا ، وأننى اتحدث عنه فى المساء مع ماشا ؟ واننى لن اجلس بعد ذلك امام البيانو الىجواره فى ردهة بيتنا بيوكروفسكى ؟ واننى لن اوصله وانا أرتجف خوفا أثناء سيرى خلفه فى ظلام الليل البهيم ؟

ومع ذلك ، فقد تذكرت انه قال لى بالامس ان هذه كانت آخر مرة يأتى الى فيها . وكانت ماشا من جهة أخرى قد حثتنى على أن أجرب ارتداء ثوب الزفاف ، فكنت أصدق احيانا وبعدها يخامرنى الشك من جديد .. ترى هلسأبدأ حقا منذ هذا اليوم فى ان اعيش مع حماة ، وبغير « نادين » ولا ماشا ولا جريجوار العجوز ؟ واننى فى المساء لن اقبل خادمتى ، ولن اسمعها تقول لى وهى ترسم علامة الصليب حسب العادة القديمة : « طاب مساؤك يا آنسة » ؟ الن اعطى سونيا ــ بعد الآن ــ دروسها المعتادة والعب معها ؟ واقرع بقبضة يدى جدار غرفتها فى الصباح فاســمع ضحكتها الرنانة ؟ وهل من الممكن ان اصبح اليوم غريبة تقريبا عن نفسى ، واعيش حياة جديدة تركزت بها امنياتى وآمالى فى .. وهل من الممكن ان

يستمر احساسى بالنشوة والسعادة لهذه الحياة الجديدة ؟

وكنت انتظر سيرج بصبر نافد لشدة ما كان عسيرا على ان اظل وحدى مع هذه الافكار .. وجاء سيرج مبكرا ، فأيقنت فقط فى هذه اللحظة أننى سأكون زوجته فى نفس هذا اليوم ، ولم يعد يصحب هذه الفكرة شيء يثير الفزع فى نفسى ..

***

وذهبنا الى الكنيسة لنستمع الى صلوات اقيمت من اجل والدى .. واخذت افكر اثناء عودتنا الى البيت ، وانا استند فى صمت الى ذراع الرجل الذى كان خير صديق لمن كنت افكر فيه .. وليته كان لا يزال فى هذه الدنيا ! ..

لقد كان راسى ملتصقا ببلاط الكنيسة البارد طيلة الوقت الذى كنت راكعة فيه داخل الكنيسة اثناء تلاوة الصلوات .. وكنت قد تذكرت والدى فى عنف واحسست ان روحه كانت تفهمنى وتبارك اختيارى ، وتصورت ان روحه كانت تحلق فوقنا وتنزل بركتها على ..

وكانت هذه الذكريات والآمال والسعادة والاحزان تمتزج فى نفسى فى شعور واحد رهيب وعذب معا ، وهو شعور كان يتمشى مع هذا الجو الراكد المنيف ، وهذا الهدوء ، وهذه الحقول الجرداء ، وهذه السماء الشاحبة التى كانت اشعة شمسها اللامعة الواهنة تحاول عبثا ان تحرق خدى ..

وايقنت فى تلك اللحظات ان الرجل الذى يصاحبنى ، كان يفهم مشاعرى ويشاطرنى اياها .. لقد كان يسير فى صمت وبخطى بطيئة . وكنت من آن لآخر اتطلع الى وجهه ، فأرى علامات التركيز النفسى مرتسمة عليه ، وهى حالة من حالات النفس تتجرد فيها من الحزن ومن السرور معا .. وكان وجهه ينسجم هكذا مع الطبيعة ومع قلبى ..

والتفت الى سيرج فجاة ، فلاحظت انه كان لديه ما يريد ان

يفضى به الى .. ماذا ؟ الن يفضى الى بما يشغل باله ؟ ولكنه فى تلك اللحظة حدثنى عن والدى بالذات ، ثم اضاف قائلا دون ان يذكر اسمه : « لقد حدث ذات يوم ان قال لى مازحا : انك ستتزوج صغيرتى كاتيا »

وجذبنى اليه ــ فى شدة ــ بذراعه التى كنت استند اليها ، وقال لى : « كم كان والدى خليقا بأن يكون سعيدا اليوم ! »

ثم تغلغل بنظرته فى اعماق عينى ، واستطرد يقول : « نعم .. انك كنت لا تزالين طفلة ، وكنت حينئذ اقبل عينيك لمجرد انهما كانتا تشبهان عينيه ، ولم يدر بخلدى قط انهما ستكونان عزيزتين لدى فى يوم من الايام لذاتهما فقط .. »

***

كنا نسير على مهل فى الطريق الضيق غير المرصوف الذى يتوسط الحقول ولا يطرقه كثير من الناس .. وكنا نطأ بأقدامنا ذلك القش المتناثر على الارض ولا نسمع الا وقع خطانا وأصواتنا .. وكانت الشمس تنثر اشعة خالية من الدفء .. وكانت اصواتنا حين نتكلم تحدث اصداء تتردد فى الفضاء وتظل معلقة فوق رؤوسنا وسط هذا الجو الراكد .. وكان يبدو أننا وحدنا فى هذا العالم بأسره تحت هذه القبة اللازوردية التى كانت تضطرب فيها اشعة الشمس الفاترة ..

وحينما بلغنا البيت ، وجدنا والدته هناك ومعها بعض الضيوف الذين لم نستطع ان نتجنب دعوتهم .. ولم اصبح معه على انفراد الا لحظة خروجنا من الكنيسة وركوبنا العربة للذهاب الى بيت نيكولسكى

***

كانت الكنيسة تكاد تكون خالية ، وبنظرة سريعة لمحت امه واقفة على بساط الى جوار المحراب ، وكانت ماشا ترتدى قبعة مزينة باشرطة ملونة ، وكان خداها مبتلين بالدموع .. وكان بالكنيسة ايضا اثنان أو ثلاثة من مزارعينا ، كانوا ينظرون الى فى فضول ..

واخذت انصت الى الصلوات وارددها ، ولكن دون ان يكون لها صدى فى نفسى ، وكنت لا استطيع ان اصلى انا نفسى .. وانماكنت انظر فى شرود الى الصــور والشموع والصليب الموشى الذى كان يتدلى على صدر القسيس ، والى صورة العذراء مريم وهى تحمل السيد المسيح ، والى نوافذ الكنيسة .. فلا افهم شيئا من كل ذلك ، بل كنت اشعر فقط بأن شــيئا غير عادى كان يجرى من اجلى ..

والتفت القسيس نحونا وفى يده الصليب ، فهنأنا وقال انه كان قد عمدنى ، وأن الله قد قدر له كذلك ان يتم زواجى على يديه .. وقبلتنا ماشا ووالدة سيرج ... ثم سمعت جريجوار ينادى العربة فاندهشت .. وسرعان ما تملكنى الذعر اذ ادركت ان كل شىء قد انتهى ، دون ان يحدث فى نفسى ما يقابل ذلك الرباط المقدس الذى تم بيننا منذ لحظة !

وقبل كل منا الآخر ، فبدت لى هذه القبلة غريبة بالنســبة الى شعورى الدفين .. حتى اننى لم اســتطع ان امنع نفسى من ان اتساءل : « هل هذا كل شىء ؟ »

وخرجنا الى مدخل الكنيسة فسمعت دويا كبــيرا .. وهبت نسمات منعشة عطرت وجهى ، بينما كان سيرج يعيننى على ان اتخذ مكانى فى العربة وقد تأبط قبعته ..

ومن خلال زجاج العربة ، لمحت ضوء القمر يتموج كما يحدث عادة فى الليالى الباردة ، وجلس سيرج الى جوارى واغلق الباب . وشعرت فى تلك اللحظة بأن شيئا يخترق قلبى ، كما لوكانت الثقة التى اغلق بها باب العربة قد جرحت شعورى !

واصطدمت عجلات العربة بحجر فى الطريق ، ثم دخلنا بعد ذلك فى طريق آخر اكثر حنــانا .. وكنت أنزوى فى ركن العربة اتأمل الحقول التى كان القمر يغمرها بفيض من ضــيائه والطريق الذى كان يبدو انه يجرى . ودون ان انظر الى سيرج ، كنت اشعر بانه

ملتصق بى ، ففكرت قائلة فى نفسى : « اهذا هو كل ما تمنحه لى هذه الدقيقة الاولى التى كنت انتظر منها أشياء كثيرة ؟ » وشعرت حينئذ بالاذلال والاهانة فى نفس الوقت ، وانا أجد نفسى جالسة هكذا وحدى معه ، وقريبة جدا اليه !

فالتفت اليه وفى نيتى ان اقول له اى شىء ، ولكن لم تخرج كلمة واحدة من بين شفتى .. وكان يبدو انه لم يعد هناك اى اثر فى نفسى لحنان قديم ، وأن شعورى هذا بالفزع والاهانة قد حل تماما محل هذا الحنان !

وأجاب سيرج فى رفق على نظرتى قائلا :

ـ لم اكن اجرؤ حتى هذه اللحظة على الاعتقاد بأن هـذا كان يمكن أن يحدث .. !

ـ وانا .. لست ادرى لماذا انا خائفة !

فأمسك بيدى ومال نحوى قائلا :

ـ هل انت خائفة منى يا كاتيا ؟

وكانت يدى تستند الى يده بلا حياة .. وقلبى يكاد يكف عن الحركة ..

فتمتمت قائلة :

ـ نعم ..

ولكن ، فى نفس اللحظة ، احسست بقلبى يدق فجاة بعنف اكثر ، وارتجفت يدى وهى تمسك بيده .. وبحثت عيناى عن عينيه فى شبه الظلام ، وشعرت فجاة باننى لم اعد خائفة منه ، وان هـذا الفزع لم يكن سوى الحب .. الحب الجديد الطارىء الذى ازداد قوة وحنانا عن ذى قبل .. وشعرت باننى اصبحت ملكا له بكل مشاعرى ، وانني كنت سعيدة لوقوعى تحت سلطانه !

الفصل السادس

بعد الزواج

وبدا لنا ان الايام والاسابيع ، بل وشـــهرين كاملين من حيـــاة العزلة فى الريف قد مرت بنا دون ان نشعر ، ولكن احاسيس هذين الشهرين وسعادتهما كانت كافية لملء حياة بأكملها .. ولم تتحقق احلامنا المتعلقة بطريقة ترتيب حياتنا ــ كما كنا ننتظر ــ ومع ذلك، فلم تكن الحقيقة بأقل من خيالنا !

ولم تكن حيـــاتنا فى تلك الفترة حياة العمل البحت الحـــافلة بالتقشف والواجبات والتضحيات على نحو ما كنت اتخيلهـــا ايام خطبتى ، بل على العكس كنت اشعر فيها بشـــعور الحب الانانى الاخاذ ، وبمسرات لا حد لها ، وبأننى نسيت كل شىء فى العالم ..

والواقع ان سيرج كان يذهب فى بعض الاحيان الى غرفة مكتبه حيث ينهمك فى بعض الاعمال ، كما كان يذهب احيانا اخرى الى المدينة من اجل اعماله كذلك ، ويلاحظ شئون زراعته .. فكنت الاحظ انه كان ينتزع نفسه من عنـــدى انتزاعا ، وكان يقاسى من جراء ذلك الما كبيرا .. وكان يعترف لى بعد ذلك بنفسه بأن المكان الذى لا اكون انا فيه يبدو له مظلما كئيبا لا حياة فيه ..

وكنت احاول ان اتسلى بالقـــراءة او اشـــغل نفسى بالموســـيقى وبحماتى وبنشاط المدارس ، اثناء غيابه .. ولكن ذهنى كان دائما معه وخواطرى وافكارى كلها تدور حوله ، ونفسى تتلهف لرؤيته ، فقد كان سيرج هو المخلوق الوحيد فى هذا الكون بالنســـبة الى ، وكنت اعتبره اجمل واطهر من فيه .. ومن ثم فلم اكن استطيع ان اعيش من اجل سواه ، وكنت احرص على ان اظل فى عينيـــه دائما كما كان يريدنى ان اكون .. وكان هو يرانى ايضا اجمل نساء

العالم واكثرهن سحرا ، ويسبغ على كل صفات الكمال الممكنة ، فكنت أجتهد فى ان اكون فى عينيه احسن زوجة فى الوجود ..

***

وكان بيتنا مسكنا ريفيا قديما ، توالت عليه بضعة اجيال من الآباء والاجداد .. كان كل منهم يتبادل وزوجته الحب ، ويعتبران انهما أسعد الازواج . وكانت تشـــع من كل شيء ، ومن كل ركن فى هذا البيت ، ذكريات عائلية طيبة نقية .. ولم اكد اضع قدمى فيه حتى شعرت بأن هذه الذكريات قد اصبحت ذكرياتى وصارت جزءا من كيانى ..

وكانت تاتيانا سيمينوفنا قد اعدت هـذا البيت ونسقته على الطريقة القـديمة . ولست استطيع ان اقول ان كل ما فيه كان جميلا او انيقا ، ولكنه كان دون شك نظيفا منظما يوحى بالاحترام، ابتداء من ادوات المائدة الى الاطعمة والاثاث .. فكان الاثاث مرتبا فى الصالون فى ذوق ونظام ، وكانت الجـدران مزينة بالصـور ، والارضية تكسوها أبسطة الاسرة القديمة . وكان بالصالون الصغير بيانو قديم ، وصوانان للملابس مختلفا الشكل ، وأريكة ، ومناضد مطعمة بالنحاس .. وكانت غرفتى الخاصة قد أعدت تحت اشراف السيدة تاتيانا سيمينوفنا وعنايتها ، وتضم أجمل ما فى البيت من قطع الاثاث . وكنت لا اجـرؤ فى أول الامر على النظر الى هــذه الاشياء الا بعين الخجل ، ولكنها ما لبثت ان اصبحت عزيزة على .. وكأننا أصدقاء !

وكنا لا نسمع صـوتا لحماتى فى البيت .. وكان كل شيء فيه يسير فى نظام تام وكأنه ساعة مضبوطة ، على الرغم من أن البيت كان يضم عددا كبيرا من الناس . وكانوا جميعا ينتعلون احـذية طرية لا كعب لها ، لان أصوات النعال وقرقعة الكعوب كانت ابغض الاشـياء الى تاتيانا سيمينوفنا !.. وكانوا جميعا يرتعـدون أمام السـيدة العجوز ، ولكنهم كانوا يؤدون واجبهم نحوى فى رضا

وسرور ، ويتسابقون فى سبيل خدمتى !

وكان خدم البيت يغسلون « ارضيته » بانتظام ، وينظفون ابسطته فى كل يوم سبت ، ويرتلون التراتيل شكرا لله فى اليوم الاول من كل شهر ، ويغمسون أيديهم فى الماء المبارك .. وفى عيد ميلاد تاتيانا سيمنوفنا وعيد ميلاد ابنها سيرج - ثم فى عيد ميلادى انا الذى حل لاول مرة فى الخريف - كانت تقام وليمة يدعى اليها كل الجيران .. وكان ذلك يحدث دائما بنفس الطريقة التى كان يتم بها منذ اقدم زمن تستطيع ان تعيه ذاكرة تاتيانا سيمينوفنا

وكان زوجى لا يتدخل ابدا فى شىء من شئون البيت ، وانما كان يقنع بالعناية بشئون الزراعة والفلاحين ، وكان يوليها رعاية خاصة .. فكان يستيقظ فى ساعة مبكرة جدا حتى اثناء الشتاء ، الى حد اننى لم اكن استطيع ان اراه قبل خروجه .. ثم كان يعود عادة ساعة تناول الشاى ، وكنا نتناوله على انفراد . وبعد أن نتحدث معا فى شئون الزراعة وما يتعلق بها من مشاكل ، كانت تتملكه - بصورة تكاد تكون دائمة - تلك الحالة النفسية المرحة الخاصة به التى كنا نطلق عليها حالة « الانطلاق الفطرى » ..

وكثيرا ما كنت اسأله عما فعله فى الصباح ، فكان يقص على حينئذ اعمالا جنونية تجعلنا نختنق من الضحك .. وكنت أطلب منه أحيانا ان يقص على قصة جادة ، فكان يقصها على وهو يغالب ابتسامة كانت تريد ان تقفز الى شفتيه ، وكنت انظر الى عينيه وحركات شفتيه فلا افهم شيئا مما كان يقول ، لاننى كنت اتسلى فقط بالتطلع الى عينيه والاستمتاع بصوته ..

وكان يقول لى احيانا : « هيا يا كاتيا .. كررى لى ما كنت اقول ! » .. ولكننى كنت لا استطيع ان اكرر له اى شىء !

***

كانت تاتيانا سيمينوفنا لا تظهر قبل العشاء ، وتتناول الشاى على انفراد .. وكانت لا تبلغنا تحياتها ، ولاتعبر لنا عن تمنياتها ، الا

عن طريق «سفراء» .. ولذلك ، فانني كنت الاقى مشقة فى انامنع نفسى من الضحك حينما كانت خادمتها الخاصــة تأتينــا ــ وقد عقدت ذراعيها على صدرها ــ لتبلغنا فى لهجــة رزينة متزنة أن سيدتها امرتها بأن تستفسر منا عما اذا كنـا قد نمنا جيـدا وعن رأينا فى الحلوى ..

وكان من النادر أن نبقى معا انا وسيرج حتى تحين ساعة الغداء، فكنت العب أو اقرأ وحدى ، وكان هو يكتب أو يخرج من جديد.. ولكننا كنا نهبط الى الصالون فى تمام الساعة الرابعة للغداء ، فكانت حماتى تخرج من غرفتها .. فيظهر حينئذ من حولها بعض النبلاء المساكين ، ونفر من الحجاج الذين كان يقيم بالبيت اثنان أو ثلاثة منهم بصورة دائمة

وفى كل يوم ، وفقا للتقاليد القـــديمة ، كان زوجى يقدم ذراعه لوالدته ليذهب بهــا الى غرفة المـائدة ، وكانت هى تطلب منه أن يقدم ذراعه الاخرى ..

***

وكانت حماتى تتصدر المائدة .. وكان الحديث يتخذ صفـــة جدية متزنة ممزوجة بطابع يكاد يكون رسميا ، ولكن الكلمات التى كنت أتبادلها مع سيرج كانت تحدث شيئا من التنويع اللطيف فى ذلك الجو الرسمى الذى كان يسود المائدة !

وبعد العشاء ، كانت حماتى تجلس فى الصالون فى مقعد كبـير وتأخذ فى « تفتيح » صفحات الكتب الجديدة التى تكون قد وصلت الى البيت ، بينما كنا نحن نقرأ بصوت عال أو نذهب الى الصالون الصغير ونجلس أمام البيانو .. ولطالما قرأنا كثيرا أثناء هـــذا الوقت ، ولكن الموسيقى كانت لا تزال متعتنا المفضلة .. وكانت تهز فى قلبينا ــ فى كل مرة ــ أوتارا جديدة وتكشف لكل منا شيئـــا جديدا عن الآخر . وحينما كنت أعزف الالحان المفضلة عند سيرج، فانه كان يجلس على أريكة بعيدة وكنت لا اكاد المحه .. وكان يجتهد

فى اخفاء المشاعر التى كانت تثيرها الموسيقى فى نفسه بدافع من الحياء .. ولكننى غالبا ماكنت اترك البيانو فى اللحظة التى كان لاينتظر فيها منى ذلك على الاطلاق ، واسرع اليه وانا أحاول ان افاجئه وفى ملامحه آثار انفعاله ، وان أفاجىء كذلك بريقا يكاد يكون سماويا صادرا من نظرته الشاردة التى كان يحاول عبثا ان يخفيها عنى ..

وكنت أعود لأقدم شاى المساء فى الصالون الكبير ، وكانت الاسرة تجتمع بكامل هيئتها حول المائدة من جديد . ولطالما اضطربت من هذه الجلسة الرسمية الى جوار الموقد ــ ومن فوقه اناء الشاى ــ وكأننا فى محكمة ، كماكنت اضطرب من توزيع الاكواب والاقداح .. وكان يبدو لى على الدوام اننى لم اكن جديرة بعد بهذا الشرف ، واننى صغيرة السن أكثر مما ينبغى ، وطائشة الى الحد الذى لا أستطيع معه أن أتولى شئون موقد كبير كهذا ، وان اضع كوبا فوق « صينية » « نيكيتا » واضيف قائلة : « انها من أجل « بيير ايفانوفيتش » .. وهذه من أجل « مارى مينيشنا » .. ثم أسأل كلّ واحد من الجالسين قائلة : « هل يكفى مابه من السكر ؟ » واترك بعض قطع السكر بعد ذلك للخادم العجوز وللخدم الآخرين . وكان زوجى كثيرا مايقول : « حسنا .. حسنا جدا ! .. انك تقومين بدور سيدة كبيرة ! » فكان ذلك يثير فى نفسى مزيدا من الخجل ..

***

وبعد تناول الشاى ، كانت حماتى تلعب الورق او تكلف « مارى مينيشنا » بأن تقرأ لها فيه الطالع ، وكانت تقبل كل واحد منا بعد ذلك وتباركنا ، فنذهب الى الجناح المخصص لنا فى البيت ..

ومع ذلك ، فقد كنا نتابع السهرة معا على انفراد ــ فى اكثر الاحيان ــ الى مابعد منتصف الليل ، فكان ذلك أجمل واحلى وقت يمر بنا .. كان سيرج يقص على ماضيه ، وكنا نرسم الخطط

ونضع المشاريع للمستقبل ، كما كنـــا نتفلسف فى بعض الاحيان ونناقش هذا الرأى أو ذاك .. وكنا نحاول ان نقول مانقوله بغـير جلبة أو ضوضاء حتى لايسمع حديثنا احد ..

لقد كنت أعيش انا وسيرج كغرباء فى هذا البيت القديم الكبـير الذى كانت تجثم فيه على كل الصدور « تاتيانا سيمينوفنا » مع روح العهد القديم القاسية !

وكنت أشعر نحو حماتى بالاحترام ، مقرونا بشىء من الفـزع ، وكذلك كان شعورى نحو كل اهل البيت والخادمات المسنـات ، ونحو الصور وقطع الاثاث .. كما كنت اشعــر فى نفس الوقت بأننى أنا وزوجى لسنا هنا فى مكاننا تماما ، وبأن علينـــا أن نلزم جانب الحذر ونحن نعيش فى هذا البيت !

ولازلت اذكر الى اليوم ذلك النظام القاسى ، وهذا العــدد الهائل من الناس الفضوليين العاطلين بالوراثة الذين كانوا يعيشون فى بيتنا والذين كنت احتملهم بصعوبة ! .. ولكن هذا الجو نفسه كان يحيى حبنـــا المتبـادل ويقويه ، وكان كل منا يحـذر جهد طاقته من ان يبدى استنـــكاره لشىء فى البيت .. وكنت اثور فى بعض الاحيـان من جراء هذا الهدوء وهذا التسامح ، ومن جـراء هذا النوع من عدم الاكتراث لكل شىء ، وكنت انعت مثل هـــذا السلوك بالضعف !

***

وذات يوم ، اظهرت لزوجى ما اعانيه من ضيق فأجابنى قائلا : « عزيزتى كاتيا .. هل يستطيع المرء أن يبدى غضبه من شىء كائنا ماكان بينما يكون سعيدا مثلى ؟.. انه لاهون على المرء أن يتنـازل للآخرين عن الكثير من حقوقه ورغباته ـ من أن يخضعهم لارادته .. هذه هى عقيدتى منذ زمن طويل ، كمــا اننى مقتنع بانه ليس هناك موقف لايستطيع المرء فيه أن يكون سعيدا .. ان الامور كلها تسير ـ بالنسبة الينا ـ على خير وجه .. ولم اعد اعرف الغضب

او الانفعال .. واننى أحس اليوم انه ليس هناك شيء واحد يبعث على الضيق أو التذمر .. ولكننى أعتقد ـ برغم ذلك ـ ان «الأحسن عدو لما هو حسن » .. أتصدقيننى اذا قلت لك ان الخوف يتملكنى حينما أسمع جرس الباب يدق ، وحينما اتسلم خطابا .. بل وفى كل صباح حينما أستيقظ .. وهو خوف ناتج عن خشيتى من ان يتغير اى شيء .. اذ اننى اشعر انه ليس هناك شيء يمكن أن يساوى اللحظة الحاضرة ! »

والحق اننى كنت اصدق سيرج .. ولكننى كنت لا أفهمه ،وكنت اجد نفسى فى حالة طيبة ، واشعر ان كل شيء يسير كما كان ينبغى أن يكون ، وان هناك فى أماكن اخرى انواعا اخرى من السعادة ولكنها ليست اكبر من سعادتى وان كانت تختلف عنها !!

***

وانقضى شهران على هذا المنوال ، ثم اقبل الشتاء فجأة ببرده واعاصيره .. ودواماته . وعلى الرغم من ان سيرج كان الى جوارى ، فقد بدأت اشعر بأننى وحيدة ، وبأن الحياة ليست الا تكرارا رتيبا ، وبأنها لا تقدم لى أو له اى جديد ، وباننا كنا ـ على العكس ـ كأننا نعود دائما الى الوراء ..

واخذ سيرج ينشغل بأعماله اكثر مما كان يفعل من قبل .. وبدا لى مرة اخرى انه كان هناك فى قرارة نفسه شبه عالم خاص ، كان لايريد أن يشركنى فيه !

وكان يثيرنى منه صفاؤه الذى لايمكن تعكيره .. وكنت أحبه كما كنت أفعل من قبل ، كما كنت سعيدة بحبه كما كنت من قبل ، ولكن حبى ظل جامدا على حالته ولم يعد ينمو ويزداد .. كما كان هناك الى جانب الحب شعور آخر اخذ يتسلل الى نفسى ، شعور جديد لا أعرفه كان يملؤنى بالاضطراب !

***

وكان قليلا بالنسبة الى ان استمر فى حب رتيب بعدما شعرت بتلك

السعادة الكبرى ، وانا احبه لاول مرة .. فقد كنت فى مجال المشاعر بحاجة الى الحركة والمغامرة والتضحية بالنفس ، اذ كان هناك فى نفسى فائض من الطاقة لايجد له متنفسا فى حياتنا الهادئة الرتيبة ، وكانت هناك ايضا انطلاقات من الحزن كنت أحاول ان اخفيها عنه وكأنها كانت سوءا ، واندفاعات من الحنان العنيف والمرح الذى كان يثير فزعه ..

وكان سيرج يتابع ملاحظة حالتى النفسية ، كما كان يفعل فيما مضى .. واقترح على ذات يوم أن نرحل الى المدينة ، ولكننى طلبت منه الا نذهب اليها والا نغير شيئا فى نوع الحياة التى كنا نعيشها ، فقد كنت سعيدة حقا .. ولكننى كنت اتعذب وانا ارى أن تلك السعادة لم تأت لى معها بأى عمل أو تضحية ، فى الوقت الذى كنت اشعر فيه بكل قوى العمل والتضحية تذبل وتئن فى نفسى !

وكنت أحبه ، وارى اننى كل شىء بالنسبة اليه .. ولكننى كنت ارغب فى ان يرى الجميع حبنا ، وان يمنعنى الناس من حبه ، وان احبه بالرغم من ذلك .. لقد كانت نفسى ومشاعرى تجدان مجالا لاشباع رغباتهما ، ولكن كان هناك مع ذلك شعور الشباب بالحاجة الى الحركة ، الذى كان لايجد مايشبعه الى درجة كافية فى حياتنا الهادئة !

لماذا كان يقول لى اننا نستطيع الذهاب الى المدينة حينما كنت ارغب فى ذلك ؟ ولو انه لم يقل لى ذلك فلربما فهمت ان هذا الشعور الذى كان يضنينى كان من جانبى خيالا مفسدا وخطأ وذنبا ..

وفى ذلك الحين ، جال بخاطرى - بطريقة لا ارادية - اننى كنت استطيع أن انتزع نفسى من الضيق ، عن طريق الذهاب الى المدينة .. وكان ذلك معناه - من جهة اخرى - انتزاع سيرج من كل ما كان يحبه ، فكنت اشعر حينئذ بالخجل ، وكان من الصعب على ان اتصور اننى أرغمه على هذه التضحية من أجلى ..

كان الوقت يمر ، والجليد يتراكم اكثر واكثر الى جوار جـدران البيت .. وكنا بمفردنا دائما ، ودائما كل منا فى وجه الآخر ، فى حين انه كان هناك فى مكان آخـــر لا اعرفه ـ وبين الضوضـــاء والبهرج ـ جمهور يروح ويغدو وهو يلهو او يقــاسى دون ان يفكر فينا او فى حياتنا الخفية للغاية ..

***

وكان أسوأ ما فى الامر بالنسبة الى ، شعورى بأن سلسلة من العادات والتقاليد المتوارثة كانت تضيق الخناق على حياتنا كل يوم بقوة اكثر ، وتصبها فى قالب واضح المعالم ، وأن شعورنا نفسه كان على وشك أن يستعبد ويخضع لقانون زمننا هذا الجامد الذى يسير دائما على وتيرة واحدة !

وكان علينا فى الصبـــاح ان نكون مرحين ، وأن نبدى احتـــرامنا للآخرين اثناء تناول الغداء ، وأن نظهر حناننا فى المســـاء .. وكنت اقول فى نفسى : « ترى هل ما افعله خير ؟ »

اما هو فكان يقول : « ان مايستحق الاعجاب حقا هو أن يفعـــل المرء الخير وأن يعيش شريفا »

وكان الوقت لا يزال متسعا امامنا لنفعل ذلك .. ولكن كانت هناك اشياء اخرى لا اقوى على القيام بها سوى اليوم فحسب ..

ولم يكن ذلك مايلزمنى لمواجهة حالتى النفسية .. وانمـــا كان يلزمنى الكفاح ، وأن يكون الشعور مرشدا لى فى الحيـــاة ، لا أن توجه الحياة شعورى . وكنت اتمنى ان اقترب من حافة الهاوية ثم اخاطب سيرج قائلة : « لم يعد امامى غير خطوة واحدة وأتردى فى الهاوية .. ولم تتبق سوى حركة واحدة واسقط هالكة » . . وكنت أتصور أن وجهه سوف يشحب حينذاك ، وسوف يمســـك بى بيديه القويتين ، ثم ينتزعنى من الحافة ، ويحملنى معه بعـــد ذلك الى حيث يشاء ..

وكانت حالتى النفسية هـــذه تؤثر على صحتى حتى تعبت

اعصابى . وذات صباح ، احسست بأن حالتى اكثر سوءا من المعتاد . وعاد سيرج من عند مأمور الشرطة بمزاج سيىء للغاية ، ولم يكن هذا يحدث له الا نادرا .. وحينما لاحظت ذلك سألته عن السبب ، ولكنه لم يرد ان يخبرنى بشىء ، واكتفى بأن قال ان الامر لا اهمية له ..

***

وفيما بعد ، علمت ان مأمور الشرطة قد استدعى طائفة من فلاحينا وطلب منهم شيئا غير مشروع ، ولما لم يقبل زوجى هدده المأمور . ولكن زوجى لم يستسلم لهذا التهديد .. وكان يرى أن الامر يدعو الى السخرية ، فلم يشأ ان يحدثنى عنه . ولكن خيل الى انه لم يشأ ان يخبرنى بشىء لانه كان ينظر الى كطفلة لم تنضج بعد النضوج الكافى ..

وابتعدت عنه فى صمت دون ان انطق بكلمة واحدة .. فذهب غاضبا الى غرفة مكتبه ، واغلق على نفسه الباب .. وجلست انا على الاريكة وانا اشعر برغبة فى البكاء ..

ورحت احدث نفسى قائلة : « لماذا يلح فى اذلالى بهدوئه هذا ؟ ولماذا يعتبر الحق فى جانبه دائما ؟ أليس من حقى ــ بدورى ــ أن اشعر بالضيق والفراغ ، وان اعيش واتحرك والا ابقى دائما فى نفس المكان احيا حياة رتيبة كل مافيها يجرى على وتيرة واحدة ؟ . . اننى اريد ان اسير الى الامام كل يوم ، بل وكل ساعة .. اننى أريد التجديد ، بينما هو يحب ان يبقى فى مكانه وان يبقينى معه ! .. ومع ذلك ، فمن السهل عليه ان يرضينى ! .. فهو ليس فى حاجة الى ان يصحبنى الى المدينة كى يرضينى .. فقط ، يجب عليه ان يكون مثلى محبا للتغيير والحركة والتجديد ، والا يحاول تحطيم نفسه او الضغط عليها .. اى يجب ــ بكل بساطة ــ ان يعيش . وهو نفسه ينصحنى بذلك ، ولكنه لايفعله ..

واحسست بالدموع تملأ عينى ، وبقلبى ينقبض ، وغضبى يزداد

عليه .. ووجدتنى اندفع اليه فى مكتبه ، فرايته جالسا يكتب . ولما سمع وقع خطواتى ، التفت نحوى وظـل ينظر الى لحظة فى هدوء وعدم اكتراث ، ثم استأنف الكتابة ..

ولم تعجبنى نظرته .. وبدلا من اتقدم نحوه ، مكثت الى جوار مكتبه ، وفتحت كتابا واخذت القى نظرة على صفحاته . وحينئذ التف نحوى من جديد وهو يقول :

ــ كاتيا .. انك على غير عادتك

ولم اجب الا بنظرة باردة .. فهز راســه وابتسم فى شىء من الخجل ، ولكننى ــ لاول مرة ــ لم اجب على ابتسامته بابتســامة مثلها ، واكتفيت بأن قلت اسأله :

ــ ماذا كان بك هذا الصباح ؟ لماذا لم تقل لى شيئا ؟

فقال :

ــ انه شىء تافه ! .. مضايقة صغيرة . ومعذلك ، لستاستطيع ان اقص عليك خبرها الآن . لقد بعثوا باثنين من الفـلاحين الى المدينة ..

ولكننى قاطعته قائلة :

ــ ولماذا لم تقل لى ذلك حينما سألتك ؟

فقال :

ــ كان من الممكن أن اقول لك حينئذ شيئا سخيفا .. فقدكنت غاضبا ..

ــ كان يجدر بك أن تخبرنى بذلك حينئذ ..

ــ لماذا ؟

فقلت اسأله بدورى :

ــ ولماذا تعتقد دائما اننى لا استطيع مساعدتك فى اى شىء

فوضع قلمه جانبا ثم قال :

ــ لا شىء من هذا القبيل .. فأنا لا استطيع ان اعيش بدونك ،

واعتبرك عونا لى فى كل الامور ، بل ولا اعتقد ان شيئا يمكن ان يتم بدونك ..

واطلق ضحكة صغيرة ، ثم عاد يقول :

ـ لقد جئت فى الوقت المناسب تمـــاما ! .. اننى اعيش لك وحدك .. ولا شىء اراه جميلا هنا الا بوجودك ..

فقلت بلهجة اثارت دهشته :

ـ اعرف ذلك .. انك تعتبرنى طفلة يجب ان يعمل الانسان على ترضيتها وتهدئتها .. كلا .. اننى لا اريد هذا الهدوء .. كفانى هــــدوءا ! ..

فاندفع يقول مقاطعا ، كما لو كان يخشى أن يتيح لى فرصة لأقول كل شىء :

ـ هيا اذن .. فكرى فى المشكلة قليلا واخبرينى برأيك ..

فقلت فى شىء من الحدة :

ـ لم اعد اريد ذلك ..

واحسست برغبة فى ان اعكر صفو هدوئه ، على الرغم من اننى كنت اريد أن اسمع منه كل شىء ، فأضفت قائلة :

ـ اننى اريد أن اعيش مثلك تمــاما ، لا أن اعيش على هامش الحياة .. !

وارتسمت على ملامحه امارات عنف والم كبير ، فعدت اقول :

ـ اريد ان اعيش معك على قدم المساواة ..

ولكننى لم اتم كلامى من فرط ما رأيت على وجهه من امارات الاسى ، بينما استطرد يقول بعد لحظة من الصمت :

ـ وفى اى شىء لا تعيشين معى على قدم المساواة ؟ ان مشكلة الفلاحين ومأمور الشرطة تخصنى وحدى وليست من شأنك !

فقلت :

ـ نعم ، ولكن الامر لا يتعلق بهذه المشكلة فحسب ..

فأضاف يقول :

ـ حاولى ان تفهمينى .. اننى اعرف ان الهموم تؤلمنى وتؤلمك فى نفس الوقت .. واعرف كذلك اننى احبك ، ولذا أحاول ان ابعد عنك الهموم .. ان حياتى هى حبى لك .. والامور تسير هكذا ، فلا تمنعينى اذن من أن اعيش ..

فقلت دون أن انظر اليه :

ـ انك دائما على حق ..

وكنت احس بصدمة لأن نفسه كانت صافية وهادئة هذه المرة ايضا ، بينما كانت نفسى تجيش بالغضب وبشعور أقرب الى الندم.

قال :

ـ كاتيا ! ماذا بك ؟ .. ان الامر لا يتعلق بمعرفة الجانب الذى معه الحق ، وانما يتعلق بشىء مختلف تماما .. لماذا تحملين على ؟ .. ارجو الا تجيبى فى الحال . فكرى أولا ثم صارحينى برأيك . انك غاضبة منى ، ولاشك انك محقــة فى ذلك .. ولكن أرجو أن تعرفينى بذنبى ..

وكيف كنت أستطيع ان اخبره بكل ما كان يكمن فى قرارة نفسى؟ لقد شعرت باضطراب كبير اذ ادركت انه تسلل بسرعة الى مايدور فى ذهنى ، ووجدت نفسى امامه ـ من جديد ـ كطفلة لا تستطيع ان تفعلَ شيئا الا ويفهمه ..

قلت :

ـ اننى لست ضدك .. فقط اشعر بالضيق واريد الا اتضايق .. ولكن هانتذا تقــول ان الامور ينبغى أن تكون هكذا .. وانت على حق مرة اخرى ..

ونظرت اليه وانا اقول ذلك ، وادركت اننى قد بلغت هدفى ، اذ رأيت صفاءه يختفى والفزع والأمل يرتسمان على وجهه ..

وقال يحدثنى من جديد ، وقد بدت فى صوته رنة اضطراب :

ـ كاتيا .. اننا لا نمزح الآن .. ان مصيرنا يتقرر فى هذة اللحظة .. اننى اطلب منك الا تجيبى بشىء وان تنصتى .. لماذا

تعذبينني هكذا ؟

وقاطعته قائلة فى برود ،وكانني لست أنا التى اتكلم وانما شيطان يتحدث بفمى :

ـ لاتقل اكثر مما قلت .. انك على حق

فقال بصوت مرتعد :

ـ آه لو كنت تعرفين ما تفعلينه بذلك !

واجهشت بالبكاء ، فشعرت بوطأة الاسى تخف عن قلبى ، وكان سيرج يجلس فى صمت الى جوارى .. كنت مشفقة عليه ، خجلة من نفسى ، حزينة لما فعلت . ولم اكن التفت اليه ، ولكن لابد أنه كان ينظر الى فى تلك اللحظة اما بعين الريبة أو القسوة . والتفت كى اراه ، فوجدت عينيه الجميلتين الحنونتين تنظران الى فى امعان وكأنهما تطلبان الصفح . وحينئذ امسكت بيده وانا اقول :

ـ اغفر لى .. لست ادرى انا نفسى ما كنت اقوله

فقال :

ـ نعم ولكننى اعرف ما كنت تقولين . ان ما قلت هو الحق

فقلت اسأله :

ـ ماذا ؟ ماذا تقول ؟

ـ أقول ان علينا أن نذهب الى بطرسبرج ، اذ لم يعد لدينا ما نفعله هنا ..

قلت :

ـ سأفعل ما تريد ..

واخذنى بين ذراعيه وقبلنى ، ثم قال :

ـ هل تغفرين لى ؟ .. لقد كنت مخطئا فى حقك ..

***

واثناء السهرة عزفت له الموسيقى لمدة طويلة ، وكان يروح فى الغرفة جيئة وذهابا وهو يهمس بشىء ، وكانت هذه عادتة . وكثيرا ما كنت أسأله عما يتمتم به ، وحينئذ كان يكرر لى بالضبط ما كان

يهمس به ، وقد بدت عليه امارات تفكير عميق . وفى معظم الاحيان ، كان يهمس بأبيات من الشعر أو بعبارات لا مغزى لها .. ولكننى كنت اتعرف على حالته النفسية من خلال هذه « السخافات »

وقلت اسأله مرة اخرى :

ـ بم تتمتم اليوم ؟

وبعد ان فكر قليلا ، وقف فى مكانه ثم اجاب وهو يبتسم ببيتين من شعر « ليرمونتوف » :

ـ هذا المجنون يثير العاصفة ..

متوهما ان العاصفة يمكن ان يسود فيها السلام ..

وفكرت اقول لنفسى : « حقا انه اكثر من رجل .. انه يرى كل شىء ، فكيف لااحبه اذن ؟

ونهضت وامسكت بيده .. واخذت اذرع أرض الغرفة معه وانا أزن خطاى على خطاه ..

وقال وهو يبتسم :

ـ حسنا ! ..

فقلت بدورى :

ـ حسنا ! ..

ولست أدرى اى حماس قد غمرنا .. اذ لم يكد ينقضى اسبوعان، حتى كنا قد بلغنا مدينة بطرسبرج قبل الاعياد !!

الفصل السابع

فى مدينة بطرسبرج

وجوه جديدة !

كان وصولنا الى مدينة بطرسبرج ، والاسبوع الذى قضيناه فى موسكو ، وزيارتنا لاسرته واسرتى ، والاستقرار فى الشقةالجديدة، ورؤية مدينة جديدة ووجوه جديدة .. كان كل ذلك بالنسبة الينا أشبه بالحلم . نعم ، كانت هذه كلها أشياء مرحة متنوعة .. وكان وجود سيرج وحبه يكسبانها طابعا دافئا مشرقا ، حتى بدت لى حياة الريف الهادئة كشىء بعيد مغمور فى العدم ..

ودهشت كثيرا حينما استقبلنى الجميع ـ اقارب وغرباء ـ برقة ولطف ، بدلا من هذه الكبرياء المتعالية وذلك البرود الذى كنت أتوقعه من الطبقة الراقية ، حتى خيل الى ان الجميع لا يفكرون الا فى . واكتشفت كذلك ان زوجى يعرف كثيرا من شخصيات الطبقة الراقية ، ولم يكن قد حدثنى عن ذلك ابدا . وكثيرا ماكنت اسمعه ينطق بأحكام قاسية على الكثيرين منهم .. وكان هذا يثير دهشتى وغضبى لاننى كنت أجدهم أناسا طيبين للغاية . ولم أكن أستطيع ان أفهم لماذا كان سيرج يعامل هؤلاء الناس فى جفاء ، ولماذا كان يتجنب مخالطة الكثيرين منهم ، رغم اننى كنت أرغب كثيرا فى مخالطتهم . وكان يخيل الى أن من الافضل أن يعرف المرء أناسا من الطبقة الراقية

***

كان سيرج قد قال لى قبل رحيلنا من الريف : « لنفكر قليلا ونرى كيف سنرتب الامور .. أننا هنا نعد من كبار الاثرياء ، وسنكون هناك بعيدين كل البعد عن الثراء . ولذا ينبغى الا نمكث فى المدينة بعد عيد الفصح ، والا نخالط ابناء المجتمع الراقى كى لا نقع فى ورطة مالية .. ولن أرضى من أجلك ..

وكنت قد قاطعته قائلة : « ولماذا نخالط المجتمع الراقى ؟.. يكفى أن نذهب لمشاهدة الاوبرا والمسرحيات والاستماع الى الموسيقى الرفيعة وزيارة الاهل . وقبل عيد الفصح ، نكون قد عـدنا الى الريف »

ولكننا ما أن وصلنا الى مدينة بطرسـبرج ، حتى كان هـذا الكلام الجميل قد طواه النسيان .. لقد دفعت فجـأة الى عالم جديد سعيد ، وادارت كل تلك المسرات راسى . وظهرت أمام عينى كثير من الاشياء التى لم تثر اهتمامى من قبل ، حتى انني انكرت كل ماضى وقلبت كل خططى راسا على عقب ، بقفزة واحدة، ودون ان أعى ذلك !

وكنت افكر قائلة : « حقا لم يكن اى شيء قبل هذه الفترة الا نوعا من المزاح الذى لا معنى له .. اما الحياة الحقيقية فهى هذه الحياة الجديدة ، وماذا اذن سيكون من امر المستقبل ؟ »

***

لقد اختفت الهموم والاحزان التى كانت تلاحقنى فى الـريف ، فجأة وفيما يشـبه السحر .. ومن ناحية أخـرى أصبح حبى لزوجى اكثر هدوءا ، فضلا عن أن فكرة فتور حبه لى ــ عما كان فى الماضى ــ لم تطرأ لى على بال . لقد كان يفهم بسرعة كل افكارى، ويقاسمنى كل مشاعرى ، ويحقق جميع رغباتى ..

ولست ادرى اذا كان صفاؤه الذى لا يقوى احد على تعكيره قد اختفى هنا ، أم أن هذا الصفاء لم يعد يثير غضبى كما كان فى الماضى. وكنت أشعر انه هنا يتمتع بوجودى الى جواره بالاضافة الى حبه القديم الذى يكنه لى دائما . وكثيرا ما كان يحدث لى بعد احدى الزيارات ــ أو بعد تعرفى بشخصية جديدة ــ أن ارتعد خوفا من أن اكون قد ارتكبت حمـاقة ما او قصرت فى واجبى كربة بيت ، وحينئذ كان يقول : « هيا يا ابنتى ! تشجعى .. لقد كنت رائعة للغاية »

وبعد وصولنا الى بطرسبرج بمدة وجيزة ، كتب خطابا لوالدته، وطلب منى ان اكتب لها شيئا فيه ، ولكنه لم يشأ ان يطلعنى على ما كتبه ، فادعيت ان لى الحق فى ان اقرأ الخطاب ، وحينئذ تركنى افعل ذلك . وكان قد كتب الى والدته يقـول : « انك لا تعرفين كاتيا حقا ، وانا نفسى لم اعد اعرفها . فمن اين تأتت لهـا هـذه الثقة اللطيفة فى نفســها وفى المجتمع الراقى ، وهـذا السـلوك الرقيق المحبوب ؟.. كل ذلك وهى لم تزل بسيطة وطيبة دائما . ان الكل مسحور بها ولا اكف عن الاعجاب بها بدورى ، وسيزداد حبى لها لهذا السبب »

***

ولقد اثار ذلك فى نفسى كثيرا من الراحة والسرور حتى خيل الى ان حبى له قد ازداد ايضا . وكان نجاحى عند جميع معارفنا شيئا لا أتوقعه .. فكانوا يخبروننى بأننى قد اعجبت عمى بصفة خاصة ، وبأن احدى عماتى تكاد تجن بى من فرط الاعجاب. وكان يحدث لى ان يقول لى احدهم ان مدينة بطرسبرج ليس فيها سيدة مثلى ، بينما تؤكد لى احداهن ان فى وسعى أن أصبح بسهولة اشهر سيدة فى المجتمع الراقى ..

وكانت هناك ابنة لاحدى خالات زوجى تحبنى حبا جما، وتغدق على اكثر انواع الاطراء ادارة لراسى ، وهى سيدة من ارقى سيدات المجتمع تدعى الاميرة « د » .. وحينما اقترحت على هذه السيدة لاول مرة ان اذهب معها الى حفل راقص ــ وكان هذا امام زوجى ــ التفت سيرج نحوى وهو يبتسم ابتسامة ماكرة لا تكاد تلحظ ، وسألنى عما اذا كنت ارغب فى الذهاب الى هناك ، فأومأت برأسى علامة الايجاب ، وانا احس بالدم يندفع غـزيرا الى وجهى ... وحينئذ عقب قائلا وهو يضحك فى سذاجة :

ــ انها تبدو كمجرم يعترف برغبته ..!

فقلت وانا ابتسم بدورى :

– الم تقل لى اننا لا يجب ان نخالط المجتمع الراقى لانك تكره ذلك ؟

فقال :

– اننا سنذهب الى هناك اذ كنت شـديدة الرغبة فى ذلك

فقلت :

– كلا !.. من الافضل الا نذهب ..

ولكنه عاد يسأل قائلا :

– هل انت شديدة الرغبة فى ذلك ؟

ولم اجب بشىء ، فاستمر سيرج يقول :

– ان من اكثر الامور سوءا فى الحياة ان يتشـبه المرء بالمجتمع الراقى .. ولكننا سنذهب الى هناك على اية حال .. نعم ، لا بد أن نذهب الى هناك ..

فقلت :

– أصارحك القول بأننى ارغب فى الذهاب الى هناك اكثر من اى شىء آخر ارغب فيه فى هذا العالم

***

وذهبنا الى الحفل .. وهناك غمرنى سرور فاق كل حد. وبدا لى فى هذا الحفل اننى المركز الذى يدور فى فلكه كل شىء ، وان هذه القاعة الكبيرة ، التى تسطع فيها الانوار ، خاصة بى وحدى.. وان الموسيقى لا تعزف الا لى ، والجمهور لا يتجمع الا من حولى. كان الجميع ، ابتداء من خادمتى الخاصة حتى الراقصين والشيوخ، يريدون أن يقولوا لى انهم قد فقدوا صوابهم بسببى . وقالت ابنة خالة زوجى اننى لا أشبه النساء الاخريات فى أى شىء ، وانما اتمتع بشىء فريد فى نوعه ، يذكر المرء ببسـاطة الريف وسـحره . والواقع ان نجـاحى قد اثار غـرورى حتى اننى صارحت زوجى برغبتى فى الذهاب مرة أخـرى الى حفلتين أو ثـلاث حفلات خلال هـذا الشتاء . واضفت أقول وأنا اغالط ضميرى : « وذلك كى

اشبع من هذه الحفلات دفعة واحدة » . ووافق زوجي على ذلك، وكان يأخذني الى هنـــاك اول الامر وهو مسرور بنجاحي ، وكان يتناسى او ينكر ما كان يدعي من قبل انه مبدأ بالنسبة اليه. ولكنه ما لبث أن بدأ يشعر بالتعب والضيق من هذه الحياة .. ولم يكن ذلك واضحا بما فيه الكفاية ، فكنت لا ادرك سر هذه النظرةاليقظة الجادة التي يوجهها الى أحيانا ..

كنت نشوى بهذا الحب والاعجاب اللذين اثرتهما في نفوس عدد كبير من الغرباء .. وقد أسكرني هذا العبير العبق ، عبير كل جديد ارتشفه هنا لاول مرة ..

وكان تأثير زوجي الروحي الذي يســيطر علي ، ويكتم انفاسي بعض الشيء ، قد تلاشى فجأة . وكان يحلو لي أن ابدو معه وسط هــذا المجتمع ونحن على قدم المســاواة .. بل وان اشــعر انهم يضعونني في مكانة اعلى من مكانته . ولم استطع ان أدرك انه كان ينظر الى ــ وانا اتمتع بهذه الحياة ــ بعين غير راضــية . وكنت احس بشعور من الرضا والكبرياء ينبثق في نفسي حين ادخل الى حلبة الرقص وكل الانظار متجهة نحــوي ، وحينئذ اراه يتركني ليندس بين الجمهور الذي يرتدي ثياب السهرة السوداء ، فيخيل الى انه يريد أن يعلن على الملأ حق الملكيـــة الذي يتمتع به على شخصي ، لا انه يريد الهــرب مني . فاذا وقع بصري على وجهه المتجهم في مؤخرة القاعة ، قلت في نفسي : « فلينتظر حتى نعــود الى المنزل ، وسوف يرى لمن كنت أحاول ان اكون لامعة جميلة.. حينئذ سوف يعرف من ذا الذي احبه اكثر من اي مخلوق آخــر يحيط بي هنا » . والواقع انني لم اكن فرحة بنجاحي الا من اجله، وايضا لانه كان يضحي من أجلي . ولكن كان هناك شيء يمكن أن يعرضني للخطر ، وهو ان أحــد الذين كانوا يقابلونني في هـــذا المجتمع كان مندفعا نحــوي ، الامــر الذي كان يثير غيرة زوجي . وكان سيرج يثق فيكل الثقة، ويبدو هادئا غير مكترث. امابالنسبة لهؤلاء الشبان ، فقد كانوا جميعا لا قيمة لهم في نظري بالمقارنة الى

زوجى ، حتى ان هــذا الخطر ــ وهو الخطر الوحيــد الذى كان يبدو لى أن من الممكن ان أواجهه فى حيــاة المجتمع الراقى ــ كان لا يخيفنى على الاطلاق ..

وعلى الرغم من ذلك ، كنت احس بنــوع من السرور والغبطة بسبب هذا الاهتمام الذى كان يبديه نحوى كثير من الناس ..

وذات مرة قلت لزوجى بعد العودة من احدى الحفلات الراقصة: « لقد لاحظت انك كنت تتحدث بحماس مع السيدة «ن» .. »

قلت ذلك وانا اهدده باصبعى ، وكانت هذه السيدة من اكثر سيدات المجتمع الراقى فى مدينة بطرسبرج شهرة ، وكان زوجى قد تحدث معها طويلا بالفعل فى تلك الليــلة . والواقع اننى كنت اريد بذلك اثارة غيظه ، فقد كان فى هذه اللحظة صامتا ومتضايقا بعض الشىء ..

واجابنى قائلا ــ وهو يقطب حاجبيه ــ كما لو كان يشعر بألم جسمانى :

ــ لماذا تقولين لى مثل هذه الاشياء ؟.. ان مثل هــذا الكلام لا يليق بك وانما بالنساء الاخريات .. دعى هذا الحديث يا كاتيا لانه يمكن أن يفسد الوئام الجميل الذى يسود حياتنا .. ولا زلت آمل أن يعود الوفاق بيننا ..

وأخلد لحظة الى الصمت ، ثم اضاف يقول :

ــ هل يمكن أن يعود هذا الوفاق يا كاتيا ؟

فقلت وانا مقتنعه تماما بما اقول :

ــ ان هذا الوفاق لم يفسد ، ولن يفسد ابدا ..

فعاد يقول :

ــ ليسمع الله منك ذلك .. ولكن .. آن الوقت كى نعود الى الريف

كانت هذه هى الفرصة الوحيدة التى حدثنى فيها على هذا النحو وكان يبدو لى أن الامور تسير دائما على خير ما يرام ، وكنت من

ناحيتى مرحة ومسرورة للغاية !

وحينما كنت ارى الضيق باديا على وجهه ، كنت أواسى نفسى بأن اقول اننى قد تضايقت من أجله مدة طويلة فى الريف . واذا حــدث وطرأ بعض التغيير على علاقتنــا ، كنت أطمئن نفسى بأن سحر علاقتنا سيعود كاملا حين نصبح مرة أخرى بمفردنا ـ خلال الصيف ـ فى منزلنا بنيكولسكى ..

وهكذا انقضى الشتاء دون ان اشعر بمرور الوقت ، وبقينا فى مدينة بطرسبرج برغم اننا كنا نعتزم الاسراع بالعودة للريف ..

***

وفى يوم الاحد التالى لعيد الفصح ، كنا نستعد للرحيل بعد أن انتهى زوجى من شراء كل الهدايا والحاجات اللازمة لحياتنــا فى الريف . وكانت الحقائب معدة .. واصبح زوجى مرة اخرى فى اقصى حالات مرحه وسروره ..

وفى هذه اللحظة ، دخلت علينا ابنة خالة زوجى فجأة ، وطلبت منا ان نمد اقامتنا حتى يوم السبت لنتمكن من حضــور حفــل الكونتيسة «ى» . واخبرتنى بان هذه الكونتيسة سبق أن وجهت الى الدعوة عدة مرات ، وأن الامير «م» الموجود حاليا فى بطرسبرج قد اظهر أثناء الحفلة الراقصة الاخيرة رغبة كبيرة فى التعرف الى، وانه سيحضر الى حفل الكونتيسة خصيصا من أجل ذلك ، وانه يقول فى كل مكان اننى اجمل سيدة فى روسيا ، وان كل اهل المدينة يجب أن يذهبوا الى هذا الحفل .. وباختصار ، فانه من غير اللائق الا اذهب الى هذا الحفل !

كان زوجى يقف فى الناحية الاخرى من غرفة الجلوس ، وكان يتحدث مع شخص لا اعرفه .. واستمرت ابنة الخالة تقول لى :

ـ هل ستحضرين اذا يا كاتيا ؟

فقلت فى تردد وانا انظر ناحية زوجى :

ـ لقد كنا نريد أن نعود الى الريف بعد غد ..

والتقت عيناى بعينى زوجى ، فالتفت الى فى حركة عنيفة .
وقالت ابنة الخـــالة :

ـ سأقنعه بالبقاء ، وسوف نذهب يوم السبت الى الحفل لندير رءوس الحاضرين .. أليس كذلك ؟

فقلت وقد بدات استسلم :

ـ ان هذا خليق بأن يربك كل مشروعاتنا ، خاصة واننا انتهينا من اعداد متاعنا ..

وحينئذ قال زوجى من مكانه ، بلهجة غاضبة حاسمة لم اسمعها منه ابدا من قبل :

ـ من الافضل ان تذهب مساء اليوم لتقـدم تحيتها واعتذارها للأمير !

وصاحت ابنة الخالة تقول فى سخرية :

ـ ها هو ذا يغار الآن .. انها اول مرة اراه فيها هكذا . اننى لا احثها على ذلك من اجل الامير فحسب يا سيرج ميخايلوفيتش ، انما من اجلنا جميعا .. فهذا هو راى الكونتيسة « ى » التى نبلغكما بدورها رجاءها فى أن تحضرا الحفل ..

فاختتم زوجى حديثه قائلا فى برود :

ـ أن الامر يتعلق بزوجتى ..

غادر سيرج الغرفة ، وهو مضطرب اكثر من المعتاد ، وجعلنى هذا اتألم ولا أعطى ردا لابنة الخالة . وحينما رحلت ، لحقت به فوجدته يذرع الغرفة جيئة وذهابا ، ولم يرنى أو يسمعنى وانا ادخل على اطراف اصابعى

وقلت فى نفسى وانا انظر اليه : « لا شك انه يتمثل الآن بيت نيكولسكى العزيز ، ويتخيل قهوته التى يتناولها كل صباح فى غرفة الجلوس الباهرة الضوء ، وحقوله وفلاحيه ، وكذا طعام عشائه والسهر بالليل »

***

وصممت فى نفسى على أن اترك كل الحفلات الراقصة ، وجميع

الامراء الموجودين فى الكون ، كى أرى من جديد مـرحه ومداعباته اللطيفة . ورغبت فى ان اخبره بأننى لن اذهب الى هـذا الحفـل ، وانه لم تعد لدى اية رغبة فى الذهاب الى هناك . وفى هذه اللحظة ، التفت فجأة الى الوراء .. فلما وقع بصره على قطب جبينه ، وتغير تعبير وجهه الحالم الجميل تماما ، وحل محله تعبير جديد ينم عن حكمة وفهم لنفسيتى ، وهدوء يمتزج بنوع من الحماية . ولم يكن يريد أن يكشف عن طبيعته الانسانية الضعيفة ، وكأنه يريد أن يبقى فى نظرى نصف اله ..

التفت الى زوجى ، وقال فى هدوء وعدم اكتراث :

ـ ماذا بك يا صديقتى ؟ ..

ولم أجب .. فقد شعرت بالغضب لانه يخفى مافى دخيلة نفسه عنى ، ولا يريد ان يبقى فى عينى على طبيعته التى احبها ..

وعاد يسألنى قائلا :

ـ هل تريدين أن تذهبى اذن الى هذا الحفل ؟

فقلت :

ـ لقد كان لدى رغبة فى ذلك ، ولكن يبدو أن الامر لايروق لك

وصمت لحظة ثم اضفت اقول :

ـ فضلا عن اننا قد حزمنا كل متاعنا ..

فقال بلهجة باردة لم أسمعها منه قط من قبل :

ـ اننى لن ارحل قبل يوم الثلاثاء .. وسآمر بفتح الحقائب .. وبعد ذلك لن نرحل الا حين تشائين ، ويمكنك ان تتفضلى بالذهاب الى الحفل ، اما انا فلن أرحل ..

واخـذ يسـير فى الغرفة بخطى مضـطربة .. ودون أن ينظر الى ، وكانت هذه عادته حين يتعرض لأزمة نفسية ..

وقلت له وانا أعترض طريقه ، متابعة اياه بعينى :

ـ لست افهم حقا .. لماذا تحدثنى بهذه اللهجة الغريبة ؟ اننى على استعداد تام لان اضحى من أجلك بهذه المتعة ، ولكن هانتـذا

تلح على فى الذهاب الى الحفل بسخرية لم اعهدها فيك من قبل !
فقال وهو يضغط على كلماته :
ـ حسنا ! انك تضحين ، وانا اضحى ايضا ، ولا شيء افضل من ذلك ! انه سباق للتضحية .. ويخيل لى ان هذا مايمكن ان نسميه سعادة الاسرة !

***

كانت تلك هى اول مرة اسمع فيها الكلمات تخرج من فمه بمثل هذه القسوة والسخرية .. ولم اتاثر لسخريته ، او اذعر من قسوته ، بل على العكس اثارت قسوته غضبى ، فاردت ان ابادله القسوة بمثلها .. اهذا زوجى الذى كان على الدوام عدوا لدودا لكل حديث جاف فى علاقتنا ، والذى كان دائما صريحا معى ؟ ولماذا يحدثنى بمثل هذه اللهجة ؟ الاننى اردت ان اضحى من اجله بسرورى الذى لا اتصور سرورا اخر يفوقه ؟ الاننى ادركت مبلغ حبى له فى نفس الوقت الذى كانت تراودنى فيه فكرة الذهاب الى الحفل ؟ لقد كان يتهرب من البساطة والصراحة فى الوقت الذى كنت انشدهما ! ..

قلت له وانا اتنهد :

ـ لقد تغيرت كثيرا . . ماذنبى فى نظرك ؟ انها ليست هذه الحفلة ، وانما خطأ ما قديم يملأ قلبك بالثورة على .. لماذا لا تصارحنى بكل مايعتمل فى قلبك ؟ لقد كنت فيما مضى لا تخشى الصراحة مثلما تخشاها الان .. تكلم بوضوح .. ماذا تحمل فى نفسك ضدى ؟

وكنت وانا اقول ذلك استجمع ذكرياتى ، وانا اشعر بامتنان دفين فى نفسى ، لانه لم يكن له الحق فى ان يوجه الى اى لوم بالنسبة لهذا الشتاء مهما كان ذلك الذى سيقوله

وتقدمت حتى منتصف الغرفة كى يضطر الى المرور من جوارى. ونظرت اليه وانا افكر قائلة : « لاشك انه سيقترب منى ويقبلنى ، ثم ينتهى كل شيء »

جالت هذه الفكرة بخاطرى .. وكان مما يحز فى نفسى اننى لم استطع ان ابرهن له على خطئه . ولكنه توقف عن المسير عند طرف الفرفة ، وقال وهو يرمقنى بنظره :

ـ الازلت دائما لاتفهمين ؟

فقلت :

ـ كلا ..

فقال :

ـ ومع ذلك ، فكيف اقول لك هـذا ؟ .. اننى أحس لاول مرة ببشاعة ما اشعر به ، ولكننى لا استطيع ان اتجنب ذلك ..

وقطع كلامه ..ويبدو ان الفزع قد اصابه من جراء لهجتـه المجـردة من الذوق . وقلت أسأله ودموع الفيظ تكاد تطفر من عينى :

ـ ماذا تريد أن تقول ؟

فقال على الفور :

ـ اننى أحس بالبشاعة والاشمئزاز .. لانك ، بعد أن يجـدك الامير جميلة ، قد ترغبين فى الجرى امامه وتنسين نفسك وكرامتك كامرأة . وانت لاتريدين أن تفهمى مايحس به زوجك ، لانك لست فى مكانه ، ولانك لا تشعرين بكرامة نفسك .. بل هناك ما هو أكثر من ذلك بكثير ، فانت تصرحين لزوجك بانك تريدين ان تضحى من اجله بنفسك .. وكأنك تقولين له : « ان اكبر سعادة بالنسبة الى هى أن اظفر باعجاب صاحب السـمو ، ولكننى اضحى بذلك من اجلك »

كان كلما تكلم تزداد نبرات صوته عنفا وحماسا ، حتى أصبـح صوته يدوى بسخرية لاذعة وقسوة عنيفة . ولم أكن قد رايته من قبل فى هذه الحال ، بل ولم اكن أنتظر قط ان أراه هكذا .. فغلى الدم فى عروقى واحسست بالخوف . ولكننى فى الوقت نفسـه شعرت بأن كبريائى قد جرحت واهينت .. وبرغبـة فى الانتقام منه ، قلت :

ـ تكلم .. لقد كنت انتظر هذا الانفجار منذ وقت طويل ..

واستمر فى حديثه قائلا :

ـ لست ادرى ماذا كنت تنتظرين .. وانا نفسى كنت اتوقـع حدوث ماهو اسوأ من ذلك . اننى اراك وانت تنغمسين كل يوم فى هذا الوحل والفراغ ،وهـذا المجتمـع السخيف والبذخ ، وكنت اتوقع .. كنت اتوقع اليوم ما يملأ نفسى بالخجل ويشبعنى بألم لم اعرف مثله قط من قبل .. خجل من نفسى حين اخذت صديقتك تفتش فى قلبى بيديها الملطختين بالوحل وتتحـدث عن غيرتى .. غيرتى ممن ؟ من رجل لا أعرفه انا ولا تعرفينه انت ؟ وانت .. انك لاتريدين أن تفهمى ، وكأنك قد صممت على ذلك .. بمن تريدين ان تضحى من أجلى ؟ يا الهى العظيم ! . الخجل لك .. الخجـل لانحطاط نفسك !

واخذ يكرر قائلا : « تضحين من اجلى ! تضحين من اجلى .. !»

وفكرت فى نفسى قائلة : « آه ! هـذه اذن سلطة الزوج ! .. انه يذل ويهين زوجته التى ترتكب اى ذنب فى هذه الدنيا .. هذه حقوق الزوج .. ولكننى لن أخضع لهذا ابدا »

وقلت له بصوت مرتفع ، وانا أحس بفتحتى انفى تزدادان اتساعا وبالدماء تهرب من وجهى :

ـ كلا .. اننى لا اضحى بشىء من اجلك . وسـوف اذهب يوم السبت الى الحفل .. نعم ، سأذهب الى هناك بكل تأكيد ..

فصاح يقول فى غضب لم يعد يستطيع ان يكبته :

ـ ليمنحك الله متعة كبيرة ! .. ولكن كل شىء قد انتهى بيننا .. وأرجو على الاقل الا تعذبيننى طويلا .. لقد كنت مجنونا !.

كانت شفتاه ترتعدان ، وكان يبذل مجهودا كبـيرا لكى يسيطر على اعصابه ، ولكيلا يندفع اكثـر من ذلك فى اقواله . وكنت فى هذه اللحظة أخاف منه واكرهه ، ووددت لو اقول له بدورى كثيرا من الاشياء ، وانتقم لنفسى من اهاناته ، ولكننى كنت أعرف اننى

اذا فتحت فمي لن اقوى على ايقاف دموعي فتضيع كرامتي !..

وغادرت الغرفة في سكون .. ولكنني ماكدت أبتعد بضع خطوات حتى استولى على ذعر مفاجيء لما حدث .. استبشعت ان تتحطم هذه الرابطة التي تتوقف عليها سعـــادتي ، وفكرت في ان اعود ادراجي ، ولكن أتراه قد هدا بما يكفي لان أمد له يدي وانظر اليه ؟ وهل يدرك مقدار كرمي معه ؟ وماذا يحدث لو ظن انني اخفي شيئا وراء الى الصريح لما حدث ؟ الم يصفح عني بهـــــدوء اقرب الى الكبرياء ؟ ولماذا اهانني الى هذه الدرجة ، وهـــو الذي قد احببته كل الحب ؟

ولم اذهب اليه .. وانما ذهبت الى غرفتي ، وبقيت فيها فترة طويلة ابكي واتذكر في رعب كل كلمة من هذا الحـــديث الاخير ، واضع مكانها في ذهني كلمة اخرى او اضيف اليها كلمة افضل .. وفجأة ، تذكرت ماحدث بيننا في فزع ينطوي على احساسي بالاهانة

***

وفي المساء ، حينما التقيت بزوجي في حضور « س » وأنا اعد الشاي ، ادركت ان هوة قد انفتحت بيننا بسبب ماحدث .. ولما سألني « س » متى نسافر ، لم أستطع الرد عليه ، واجابه زوجي قائلا :

ــ يوم الثلاثاء .. اننا سنذهب الى حفل الكونتيسة « ر »

ثم التفت نحوي وقال :

ــ انك ستذهبين الى هذا الحفل بغير شك ..

ونظرت الى زوجي في خجل ، وقد ذعرت للهجة صوته التي كانت تبدو غريبة بعض الشيء ، فوجدت عينيه تنظران الى في مزيج من المكر والسخرية ..

قلت :

ــ نعم ..

وحينما أصبحنا بمفردنا من جديد في المساء ، اقترب زوجي مني

ومد الى يده وهو يقول :

ــ ارجو ان تنسى ماقلت لك ..

وامسكت بيده .. ومرت على وجهى ابتسامة سريعة مرتعدة ، وكادت الدموع تنهمر من عينى .. ولكنــه أعاد يده كمــا لو كان يخشى حدوث مشهد عاطفى بيننا ، وجلس فى مقعد كبير يبعد عنى بمسافة كافية ..

وقلت فى نفسى : « أتراه لايزال يعتقد ان الحق فى جانبه ؟ »

وفجأة ، قال يخاطبنى :

ــ يجب أن نكتب لوالدتى لنخبرها بأننا قد أجلنا سفرنا ، والا تسرب القلق الى نفسها ..

فقلت اسأله :

ــ ومتى تعتزم السفر ؟

فقال :

ــ يوم الثلاثاء .. بعد الحفل

فقلت وانا انظر الى عينيه :

ــ اتعشم الا يكون هذا التأجيل بسببى ؟

ولكنه اكتفى بأن نظر الى ولم يقل شيئــا .. ثم بدا وكأن قوة سحرية تجذب عينيه بعيداً عنى .. وخيل الى ان وجهه قد شاخ فجأة واصبح كريها ..

***

وذهبنا الى الحفل ، وكانت علاقتنا قد اكتسبت مرة اخـــرى طابعا ودياً ظاهريا ، ولكنها كانت فى الواقع علاقة تختلف تماما عما كانت عليه فى الماضى ..

وفى الحفل ، اقترب منى الامير بينما كنت جالسة وسط جمع من النساء ، فاضطررت للوقوف لأتحدث معه .. ولما فعلت ، اخذت عيناى تبحثان عن زوجى بطريقة لا ارادية ، فرايته ينظر الى من الطرف الاخر من القاعة ثم يشيح بوجهه .!

وفجأة ، استولى على خجل والم كبيران جعلانى اشعر باضطراب شديد ، حتى تصاعدت الحمرة الى وجهى لنظـــرات الامير .. ولكننى اضطررت الى البقاء فى مكانى ، والانصات الى مايقوله وهو يفحصنى من قمة راسى الى اخمص قدمى . ولم يكن حديثا طويلا.. ولم يكن هناك مكان خال حتى يستطيع الجـــلوس الى جوارى ، ولابد انه قد أحس بأننى لا اشعر بارتياح للحديث معـــه . وكان حديثنا عن آخر حفل راقص ، وعن المكان الذى امضى فيه فصـــل الصيف ، واشياء أخرى ..

وتركنى الامير وهو يبدى رغبته فى التعرف بزوجى .. ورايتهما بعد ذلك يقفان معا ويتحدثان فى الطرف الآخر من القاعة ، ويبدو ان الامير كان يخبره بشيء عنى لاننى رايته يبتسم اثناء الحـديث وينظر ناحيتى ، وحينئذ احمر وجه زوجى ، فحيا الامير فى ادب جم وانصرف .. واحمر وجهى ايضا ، وخجلت من الفـكرة التى كونها الامير عنى وعن زوجى بصفة خاصة . ويبدو ان الجميع قد لاحظوا حيرتى وخجلى اثناء حديثى مع الامــــير ، وكذلك تصرفه الغريب . وكنت اقول فى نفسى : « يعلم الله ماسيدور فى خلدهم .. ترى هل يعرفون أمر المناقشة الحامية التى حـــدثت بينى وبين زوجى ؟ »

***

وبعد انتهاء الحفل ، صحبتنى ابنة خالة زوجى الى المنـــزل ، وتحدثنا معا فى الطريق .. ولم استطع ان امنع نفسى من ان اقول لها كل الذى حدث بيننا بمناسبة هذا الحفل ، فطمأنتنى واخبرتنى بأن ما حدث من قبيل تلك المشاجرات الكثيرة التى لامعنى لها ، والتى لاتخلف اى أثر فى العلاقة بين زوجين متحابين .. وشرحت لى شخصية زوجى كما تفهمها ، وقالت انها تجده انسانا متكبـرا غير اجتماعى . فوافقتها على ذلك ، وانا احس بأننى قد اصبحت اكثر فهما لشخصيته !

وحينما اصبحت بعد ذلك وجها لوجه مع زوجى ، شعـــرت

بأن هذا الحكم الذى أصدرته عليه جرم حقيقى ثقيل الوطأة على نفسى ، كما شعرت بأن الهوة بيننا اخذت تزداد اتساعا وعمقا ..!

وتغيرت حياتنا منذ ذلك اليوم ، وكذلك علاقتنا المتبادلة ، تغيرا تاما .. فلم يعد انفرادنا معا يبدو لنا جميلا كما كان من قبل .. وكانت هناك موضوعات نتجنب الخوض فيها ، وكان من الاسهل ـ بالنسبة الينا ـ ان نتبادل الحديث فى وجود شخص غريب ، فى حين اننا نجد صعوبة فى ذلك حين نكون وجها لوجه . وحينما كانت ترد فى الحديث اية اشارة عن حياة الريف او حفل راقص ، كانت نار تعمى بصيرتنا فنشعر بالاضطراب لمجرد أن ينظر كل منا الى الاخر ، وكان كل منا يفهم النقطة الحساسة التى تفرق بيننا ويخشى الاقتراب منها ! ..

وكنت مقتنعة بأن زوجى رجل متكبر ومتهور ، وبأن من واجبى ان اكون على حذر حتى لا اصطدم بمواطن الضعف فيه فأسبب ثورته . ومن ناحيته كان مقتنعا كذلك بأننى لا استطيع العيش بعيدا عن حياة المجتمع الراقى ، وبأن حياة الريف لم تعد تروق لى ، وبأنه يجب ان يخضع لهذا الميل « الشرير » فى طبيعتى ..

ولذا كان كل منا يعمل من ناحيته على تجنب اى حديث مباشر فى مثل هذه الموضوعات ، وكان كل منا يحكم على صاحبه حكما خاطئا كل الخطأ .!

وانتهى بنا الحال الى ان اصبح كل منا لاينظر الى صاحبه على انه مثال الكمال فى هذا العالم ، بل على العكس كان كل منا يعقد كثيرا من المقارنات ليقارن فيها ـ فيما بينه وبين نفسه ـ بين شخصية وطابع صاحبه ، وشخصية وطابع الاخرين !

الفصل الثامن

العودة إلى الريف

حادثان مفاجئان

كنت متعبة جدا قبل رحيلنا .. وبدلا من ان نذهب الى الريف، اقمنا باحدى « الفيلات » ، ومن هناك سافر زوجى ليرى والدته . وكانت صحتى قد تحسنت وقت رحيله الى حد كان يمكننى من مرافقته ، ولكنه حثنى على البقاء وكأنما كان يخشى أن تتأثر صحتى من جراء السفر . وفهمت انه لم يكن يخشى على صحتى ، وانما كان فى الواقع مقتنعا بأنه لا يحسن بنا ان نكون فى الريف ، فلم الح عليه كثيرا وبقيت ..

والواقع اننى شعرت وانا اعيش بدونه بالعزلة والفراغ ..ولكنه حينما عاد ، لاحظت ان وجوده لم يعد يضيف الى حياتى شيئا كما كان يحدث من قبل . وكانت تلك العلاقات السابقة التى لم أحدثه عنها تجثم على صدرى فتكتم انفاسى كالجرائم ، كما كانت تسيطر على كل أفكارى ومشاعرى ، فى حين كانت كل أفعاله وكلماته نموذجا للكمال ..

وكانت العلاقات بيننا قد تحولت ــ بصورة واضحة ــ الى علاقات اخرى تختلف تماما عن علاقات الحب المثالى التى كانت تربطنا من قبل .. ولم نكن من جانبنا نلاحظ هــذا التحول الكلى . ومنــذ ذلك الحين ، اصبحت لكل منا مشاغل ومصالح لم نعد نحاول أن نشترك فيها ، بل ولم نعد نحس بأى اضطراب لان كلا منا أصبح يعيش فى عالم بعيد وغريب عن عالم الآخر ، فقد اعتدنا هذه الحال .. ولم تلبث الحيرة ــ بعد مضى عام ــ أن تلاشت من قلب كل منا وهو ينظر الى الآخر

وكانت فترات المرح عند سيرج ، وافعاله الصبيانية ، قد اختفت

كذلك .. وتلاشى ايضا هذا التسامح الذى لا يعبأ بشىء ، والذى كان يثيرنى فيما مضى ، كما تلاشت نظـــرته العميقة التى كانت تشعرنى بالفزع والاضطراب فى آن واحد . ولم نعد نصلى معا أو نشارك بعضنا الحماس مثلما كنا نفعل من قبل ، واصبح كلّ منا لا يرى الآخر الا نادرا . وكان سيرج يخرج دائما لقضاء شئونه ، ومن ناحيتى لم اعد اخاف أو اشكو من بقائى بمفردى ، وكنت اندفع على الدوام تجاه العلاقات الاجتماعية دون ان احس بحاجة الى ان اظهر فى المجتمع برفقة زوجى .. !

***

ولم يحدث بيننا قط اى شجار او جدل عنيف .. وكنت ابذل جهدى لارضائه ، وكان من ناحيته ينفذ كل رغباتى ، وكان يبدو ان كلا منا لا يزال يحب الاخر . وحينما كنا نبقى معا بمفردنا ــ ولم يكن هذا يحدث الا نادرا ــ كنت لا احس وأنا بجواره بأى سرور أو اضطراب .. وكأننى اجلس بفردى . ولم يكن بخاف على أن ذلك الذى يجلس معى ليس شخصا عاديا ، ولكنه رجل ممتاز للغاية .. وكنت مقتنعة بأننى اعرف مقدما كلّ ما سيقوله او يفعله ، وحينما كان يفكر او يتصرف خلافا لما اتوقع ، كنت ارى بكل بساطة أنه اخطأ .. ولكننى لم اكن انتظر اى شىء من ناحيته. وقصارى القول كان زوجى ، ولا شىء أكثر من ذلك .. وكان يبدو لى ان الامور هى هكذا .. وينبغى ان تكون هكذا ، وانه لم توجد ولا يمكن ان توجد بيننا علاقات أخرى .. !

وحينما كان يتغيب ، كنت أشعر مع ذلك بعزلة هائلة ــ خاصة فى الايام الاولى من زواجنا ــ وكنت أحس وهو بعيد عنى بقيمته كسند لى ، فارتمى فى فرح على صدره حينما يعود ، ولــكن لم تكن تنقضى ســاعتان ، حتى كنت أنسى هذا السرور ولا أجـــد شيئا اقوله ..

وفى اللحظات القصيرة التى كان ينبثق فيها بيننا حنان هادىء،

كان يخيل الى ان هذا ليس هو الحب الذى كان يملأ كل قلبى ، وكنت أقرأ نفس الاحاسيس فى عينيه . ولكننا لم تكن نريد أن نتخطى هذا الحد ، الامر الذى كان يشعرنى أحيانا بشىء من الحزن .. وعلى اية حال ، لم يكن لدى الوقت الكافى للتفكير جديا فى شىء ، وكنت اجتهد فى أن انسى أحزانى بأن انغمس فى تسليات متنوعة !

وسرعان ما اصبحت حياة المجتمع تسيطر على كل ميولى ، بل صارت عادة تستعبدنى وتشغل من قلبى كل المكان الذى كان مخصصا للحب . ولذا كنت اتجنب دائما ان ابقى بمفردى خوفا من أن اتعمق فى تأملاتى لحالتى . وكان وقتى كله مشغولا منذ الصباح الباكر حتى ساعة متأخرة من الليل . ولم يعد هذا الوقت ملكا لى اتصرف فيه كما أشاء ، حتى ولو أردت البقاء فى البيت . ولم أكن اجد فى بقائى اى سرور او مضايقة .. وبدا لى انالامور لا بد ان تكون هكذا دائما !

***

وانقضت ثلاث سنوات على هذا المنوال ، ظلت خلالها علاقتنا جامدة فاترة .. وكأنما لا يمكن ان تتحسن او تسوء أكثر من ذلك. ووقع خلال هذه الاعوام الثلاثة حدثان مفاجئان فى حياتنا العائلية، ولكنهما لم يحدثا اى تغيير فى حياتى .. !

أما هذان الحدثان ، فهما ميلاد اول طفل لى ووفاة تاتيانا سيمينوفنا . واثناء الايام الاولى ، غمر قلبى شعور عنيف بالامومة، وخيل الى لفرط اندفاعه وتملكه لقلبى اننى على وشك أن ابدأ حياة جديدة . ولكننى ما أن بدأت أخرج من جديد بعد شهرين ، حتى اخذ هذا الشعور يقل شيئا فشيئا حتى تحول الى «عادة» !

وعلى العكس عاد زوجى ، منذ ولادة هذا الابن ، رجل الزمان الماضى .. هذا الرجل اللطيف الذى يمكث دائما فى البيت ، وكان واضحا أنه قد حول كل حنانه ومرحه السابقين الى ولده .وحينما

كنت ادخل الى غرفة الطفل كى اقبله قبلة المساء ـ وانا لا ازال أرتدى ثوب السهرة ـ كنت كثيرا ما اجد زوجى جالسا فى الغرفة، وكنت الاحظ نظرة اللوم القاسية التى يوجهها الى ، وحينئذ كان يعترينى خجل مفاجىء . وأحيانا ، كان عدم اهتمامى بالطفل يسبب لى ذعرا ، وكثيرا ماكنت أسأل نفسى قائلة : « ترى ، هل قدر لى ان اكون أسوأ من بقية النساء ؟ » . ولكننى كنت اعود فاجيب على نفسى بقولى : « ولكن .. ماذا افعل لتفادى ذلك ؟ »

وكنت احب طفلى حقا ، غير اننى لم اكن استطيع ان اظل جالسة الى جواره اياما بأسرها ، فقد كان هذا خليقا بأن يشعرنى بالضيق .. ولم اكن أرضى التصنع لنفسى بحال من الاحوال !

وسبب موت والدة سيرج له حزنا كبيرا .. وبرغم انى كنت اشاركه احزانه ، الا أننى كنت افضل الآن أن اعيش فى راحة بالريف . وكنا قد أمضينا الجانب الاكبر من هذه السنوات الثلاث فى المدينة ، ولم اذهب خلالها الى الريف سوى مرة واحدة لمدة شهرين . وحدث خلال السنة الثالثة أن سافرنا الى الخارج حيث أمضينا الصيف فى مدينة اشتهرت بمياهها المعدنية ..

***

كنت حينئذ فى الحادية والعشرين من عمرى .. وكان يخيل الى ان ثروتنا فى أوج ازدهارها ، وأن جميع من اعرفهم يحبوننى . وكنت اتمتع بصحة جيدة ، وأرتدى ثيابا من احدث طراز فى مدينة المياه المعدنية هذه ، كما كنت اعرف إننى جميلة .. وكان الجو بديعا وكل شىء يبدو مرحا من حولى . ومع ذلك لم اكن اشعر بأننى سعيدة مثلما كنت وأنا فى بيت نيكولسكى ، وقت أن كانت سعادتى كامنة فى نفسى لاننى أستحق السعادة . كانت حالتى النفسية قد تعرضت لتيارات مختلفة ، ولكن هذا الصيف كان طيبا . ولم يكن هناك ما اشتهيه ، أو آمل فيه ، او اخشاه ..

لقد كانت حياتى فى أوجها ، وكان ضميرى مرتاحا ..

ولم أجد من بين الشبان اللامعين فى مدينة المياه المعدنية هذه واحدا يمتاز فى شيء عن الآخرين ، ولا حتى ذلك الامير العجوز ك ... سفيرنا الذى كان يغازلنى قليلا . كانوا اما حديثى السن اكثر من اللازم ، واما كبار السن للغاية . وكان هناك رجل انجليزى ذو شعر اشقر ، وآخر فرنسى ذو لحية .. وكنت لا ابدى اى اهتمام بأحد ، وفى الوقت نفسه لم أكن استغنى عنهم .. فقد كانوا بوجوههم الخالية من التعبير جزءا لا يتجزأ من جو هذه الحياة الانيقة التى كنت منغمسة فيها ..!

ومع ذلك ، لفت احدهم انتباهى أكثر من الاخرين بالطريقة الجريئة التى عبر بها أمامى عن الحماس الذى اثيره فى نفسه . وكان هذا هو الماركيز د ... الايطالى الجنسية . وكان لا يدع فرصة للالتقاء بى تفلت منه .. فكنا نمتطى الجياد ونذهب الى الملهى ، وكثيرا ما كان يقول لى اننى جميلة . واحيانا كنت أراه من نافذتى وهو يحوم حول منزلنا ، وكثيرا ما احمرت وجنتاى خجلا منه ، فكنت دائما اشيح عنه بوجهى لانه كان يثبت فى بصره على الدوام ، ولم يكن هذا يروقنى ..

كان صغير السن انيقا وسيما .. وكان يشبه زوجى فى ابتسامته وتعبير محياه ، ولكنه كان أجمل من زوجى بكثير . وكان هذا الشبه يدهشنى ، بيد انه كانت هناك فروق بينهما فى الشخصية ، وفى الفم ، والنظرة والذقن المستطيلة . وكان مظهر زوجى يعبر عن طيبة وهدوء عجيبين .. وكان هذا يكسبه سحرا مثاليا ، بينما كان فى هذا الشاب شيء ما بدائى وحيوانى !

***

وخطر ببالى أن هذا الشاب الايطالى يحبنى حبا جما ، ومن ناحيتى كنت افكر فيه أحيانا بمزيج من الفخر والعطف . وحينما حاولت ان اهدىء من انفعاله ، وأن أجعله يقف عند حد الثقة

والود المتبادل ، لفظ محاولتى واستمر يثير الاضطراب فى نفسى ، برغم كراهيتى لذلك .. وظلت عواطفه تهدد بالانفجار فى اية لحظة !

وكنت اخشى هذا الرجل على الرغم من اننى لم اعترف بذلك لنفسى ، وكثيرا ماكنت افاجىء نفسى وانا افكر فيه . وكان زوجى قد تعرف به ، ونشأت بينهما صداقة حميمة اكثر من صداقة سيرج لمعارفنا الاخرين ، الذين كان يفضل أن يبدو امامهم بمظهر زوج بارد متعال !

واصبت بعرض فى نهاية موسم الاصطياف ، ولم اغادر المنزل طيلة أسبوعين .. وحينما خرجت ليلا ـ لاول مرة ـ بعد مرضى للاستماع الى شىء من الموسيقى ، علمت ان سيدة تدعى ليدى « س » قد جاءت الى المصيف . وكان الناس ينتظرون قدومها منذ مدة طويلة ، وكانت مشهورة بجمالها الرائع

والتف من حولى جمع من الناس استقبلونى بسرور .. ولكن حشدا أكبر التف حول ليدى « س » التى كانت قد سبقتنى الى المكان ببضع لحظات . وكان الناس من حولى لا يتحدثون الا عنها وعن جمالها . وحينما رايتها وجدتها جذابة حقا ، ولكننى احسست نحوها باشمئزاز بسبب تعاليها واعتدادها بنفسها . وصارحت معارفى بهذا الشعور . وعلى أية حال ، كان مما جعلنى أشعر بالضيق فى ذلك اليوم أن كل الناس كانوا مرحين للغاية . وفى اليوم التالى ، رتبت ليدى « س » .. رحلة الى القصر ، ولكننى رفضت الاشتراك فيها . ولما خرج الجميع فى هذه الرحلة وبقيت بمفردى ، بدا لى كل الرجال تافهين وسخفاء ، واحسست برغبة فى البكاء وفى انهاء اقامتى بالمدينة والعودة الى روسيا بأسرع مايمكن !

كان شعور جارح قد تسرب الى نفسى ، ولكننى لم اكن أريد الاعتراف بذلك .. وادعيت أننى اشعر بتوعك ، وامتنعت عن

الظهور فى حلقات المجتمع الراقى . ولم اكن اخــرج الا نادرا ، وكنت حينما افعل اخرج صباحا وبمفردى كى اشرب شيئا من المياه المعدنية ، او اذهب لزيارة الضــواحى فى رفقــة الســيدة « ل . م » وهى احدى معارفى الروسيات . ولم يكن زوجى معى فى هذه الفترة .. اذ كان قد ذهب منذ عــدة أيام الى مدينــة هايدلبرج حيث كان ينتظر انتهاء فترة استشفائى بالميــاه المعدنية كى يعود بعد ذلك الى روسيا ، ولم يكن يأتى لرؤيتى الا من حين لآخر !

***

وذات يوم ، جرت ليدى «س» خلفها كل المجتمع الراقى الى حفل ، واتفقت مع السيدة « ل.م» على ان نذهب معا الى الحفل.. وسارت عربتنا التى تجرها الجياد فى الطريق الكثير المنحنيات بين صفوف أشجار الكستناء العتيقة ، التى يستطيع المرء من خلالها أن يلمح ضواحى مدينة بادن الساهرة .. كان ذلك عند غــروب الشمس ، وكنا نتحدث بجد ، الامر الذى لم يحدث بيننــا من قبل ..

لقد كنت أعرف السيدة « ل . م » منذ مدة طويلة .. ولكنها بدت فى ذلك اليوم جميلة خفيفة الظل يستطيع المرء ان يحدثها فى أى شىء .. ودار الحديث بيننا عن حياة الاسرة والاولاد ، وتلك الحياة الفارغة التى نحياها فى المصيف ، وابدينا رغبتنا فى أن نلتقى فى ريف روسيا . وحينئذ غمر نفسى فجأة شعور بالحنين والحزن لم أعرف له سببا . واخيرا وصلنا الى قصر ليدى « س » ونحن واقعتان تحت تأثير هذه المشاعر الجادة

كانت الظلال والرطوبة تسودان خلف جدران هــذا القصر ، وكانت أشعة الشمس ــ قبــل الغــروب ــ لا تزال تداعب قمم الاطلال ، وكان وقع خطانا يتردد صداه تحت القباب . وظهرت من خلال الباب المفتوح المناظر الطبيعية لمنطقة بادن ، فبدت كلوحة

داخل اطار .. ولكنها كانت مع ذلك مناظر باردة فى نظرنا نحن الروس

***

وجلسنا نستريح ، واخذنا نتأمل غروب الشمس فى صمت . وفجأة ، تناهت الى اسماعنا أصوات واضحة ، وخيل الى ان شخصا يذكر اسم عائلتى . وارهفت السمع فالتقطت اذناى بعض الكلمات بطريقة لا ارادية .. كانت اصوات أعرف صاحبيها : الماركيز د ... وصديقه الفرنسى الذى كنت اعرفه كذلك . كانا يتحدثان عنى وعن ليدى س .. وكان الفرنسى يقارن بينى وبينها، ويحلل جمال كل واحدة منا . ولم يذكر أى شيء يخدش المشاعر ، ومع ذلك غلت الدماء فى عروقى حينما سمعت كلماته . كان يشرح بالتفصيل مايراه جميلا ، سواء فى أم فى ليدى س . وبالنسبة الى ، ذكر اننى سبق ان انجبت طفلا ، اما بالنسبة الى ليدى س فهى لا تزال فى التاسعة عشرة من عمرها . وكان يرى أن ضفائر شعرى أكثر جمالا من ضفائر الليدى س .. ولكن شعر الليدى أكثر رقة . وذكر ايضا أن ليدى س من زهرات المجتمع المعروفات، اما انا فمن هذا النوع من الاميرات الروسيات الصغيرات اللاتى يحضرن كثيرا الى مدن المياه المعدنية حبا فى الظهور . واختتم الفرنسى حديثه قائلا عنى اننى حسنا فعلت بعدم دخولى فى منافسة مع الليدى ، والا لكنت لاقيت حتفى فى مدينة بادن .. !

وهنا أجابه الايطالى قائلا :

ــ ان هذا خليق بأن يحزننى حقا ...

فقال له الفرنسى ، وهو يطلق ضحكة مرحة قاسية :

ــ الا اذا كانت ترغب فى مواساة نفسها بصحبتك ..!

فقال الايطالى بلهجة جافة :

ــ سوف اتبعها اذا رحلت ..

فأجابه الفرنسى قائلا فى سخرية :

ـ يالك من انسان سعيد الحظ ! اذن ، فانت تستطيع أن تقع فى الحب !

فقال الايطالى فى دهشة :

ـ أستطيع ان احب !؟

واخلد الى الصمت لحظة ، ثم اضاف يقول :

ـ يمكنك بالاحرى أن تقول عنى اننى لا استطيع ان اعيش بغير حب .. ان افضل شىء فى الحياة هو ان يجعل المرء من حياته قصة . قصتى لن تتوقف ابدا عند منتصفها ، لاننى ازمع السير فيها حتى النهاية ، تماما كما سبق ان سرت فى قصصى الاخرى..

واخيرا قال الفرنسى :

ـ أتمنى لك حظا سعيدا ياصديقى ..

ولم أستطع ان اسمع اكثر من ذلك ، لانهما انتقلا خلف احد الجدران واخذا ينزلان الدرج . وبعد بضع دقائق ، وبينما كانا يخرجان من أحد الابواب الجانبية ، وقع بصرهما علينا فبدت على وجهيهما أمارات دهشة شديدة . وصعدت الدماء الى وجهى حينما اقترب منى الماركيز « د » واستولى على الذعر حينما رايته يقدم لى ذراعه ونحن نخرج من القصر ، ولكننى لم استطع ان أرفضها .. واخذنا نسير خلف السيدة ل . م التى كانت تسير فى رفقة صديق الماركيز ..

واتجهنا نحو العربة .. وكنت أشعر بالاهانة بسبب ماذكره عنى الفرنسى . ومع ذلك اعترفت بينى وبين نفسى انه لم يفعل أكثر من التعبير عما كنت أشعر به فى دخيلتى . أما كلمات الماركيز الفظة ، فقد كانت تثير فى نفسى شعورا عنيفا بالثورة والخجل !

وكانت تعذبنى فكرة أننى استمعت الى هذه الكلمات ، ولكننى لم اعد اشعر فى الوقت نفسه بأى خوف منه .. بل على العكس كنت احس باشمئزاز وهو يسير الى جوارى ، ولم اكن انظر اليه او اجيب على حديثه ، وانما حاولت جهدى ان اسير مباشرة خلف

صديقتي والفرنسي . وكان الماركيز يحدثني عن جمال الطبيعة ، وعن سعادته بهذا اللقاء غير المنتظر ، وعن أشياء اخرى كثيرة لا أذكرها لانني لم اكن أنصت اليه ..

***

وكنت أثناء ذلك أفكر في زوجي وابني ، وكانت تتنازع نفسي مشاعر متباينة هي مزيج من الخجل والاشفاق والرغبة في أن أعود سريعا الى غرفتي المنعزلة في فندق بادن ، حتى أستطيع ان أفكر بحرية فيما كان يدور في نفسي . ولكن صديقتي كانت تسير على مهل ، وكانت لا تزال أمامنا مسافة طويلة للوصول الى العربة، وشعرت بأن الماركيز يبطيء في السير عن عمد محاولا أن يبقى معي بمفرده ، فأخذت أردد في نفسي قائلة : « كلا .. هذا شيء لا يمكن أن يحدث » . وقررت أن أسرع الخطى ، ولكنه منعني من ذلك بأن اخذ يجذب ذراعي الى ذراعه بطريقة واضحة . وفي هذه اللحظة ، انعطفت صديقتي — مع منحنى بالطريق — فأصبحت معه بمفردي، وتملكني خوف شديد ..

قلت له في لهجة باردة :

— دعني من فضلك ..

واردت ان اجذب ذراعي ، فاشتبك طرف كمي المصنوع من الدانتيلا بأحد ازرار سترته . وحينئذ انحنى نحوي واخذ يخلي سبيلَ الكم ، فلمست أصابعه ذراعي العارية ..

لم اكن احس بفزع او سرور .. وأثار هذا الشعور قشعريرة باردة احسست بها تجري في ظهري ، ونظرت اليه وانا احاول ان أجعل نظرتي الباردة تعبر له عن مدى احتقاري ، ولكن يبدو ان هذه النظرة لم تعبر عن الاحتقار بقدر ماكانت تعبر عن الذعر والاضطراب

كانت عيناه المشتعلتان تحدقان في وجهي .. وكانت يداه تمسكان بمعصمي ، وتمتمت شفتاه تقولان انه يحبني ، وانني كل

شيء بالنسبة اليه . واخذت يداه تضغطان على بقوة اكثر ، فأحسست بالنار تسرى فى عروقى . واظلمت عيناى ، وارتعد جسمى ، وجفت فى حلقى الكلمات التى كنت أوشك ان انطق بها لاوقفه عند حده ..

وفجأة ، شعرت بقبلة تطبع على وجنتى .. فمكثت جامدة فى مكانى انظر اليه وقد تثلج بدنى دون أن تكون لدى القوة كى أتكلم أو اقدم على تصرف . كان الفزع يشلنى ، فبقيت واقفة لا ادرى ماذا ينبغى أن افعل ..

***

حدث كل ذلك فى لحظة واحدة .. ولكنها كانت لحظة رهيبة ! لقد رأيته فى هذه اللحظة ــ على حقيقته ــ واستطعت ان احلل وجهه بنظرة واحدة ، وكذلك ان أستشف مايدور خلف جبينه القصير المنخفض . وامعنت النظر فى انفه المستقيم ذى الفتحتين المنتفختين ، وشاربه ، وذقنه التى حلقت بعناية ، وكذلك رقبته التى لوحتها أشعة الشمس . لقد كنت احتقره واخشاه .. انه كان شخصا غريبا عنى ، ومع ذلك كان حب هذا الرجل الذى اكرهه يدوى فى نفسى دويا عنيفا !

وتمتم يقول بصوته الذى يشبه صوت زوجى :

ــ اننى احبك ..

وفجأة .. قفزت الى ذاكرتى صورة زوجى وولدى ، كأنهما شخصان عزيزان كنت أعرفهما فيما مضى ، وانتهى كل شيء بالنسبة لهما .. وسمعت فجأة صوت صديقتى ينادينى من منعطف الطريق ، فعادت الى رباطة جأشى وانتزعت يدى وعدوت هاربة كى ألحق بها ..

وركبنا العربة ، وحينئذ نظرت اليه لاول مرة .. فخلع قبعته وقال لى وهو يبتسم شيئا لا اذكره .. وبدا واضحا انه يشعر بمقدار ما كان يسببه لى من عذاب اليم فى هذه اللحظة . وبدت

لى الحياة بائسة للغاية ، والمستقبل مظلما للغاية ، والماضى رهيبا للغاية ! .. واخذت صديقتى تحدثنى ، ولكننى لم افهم كلمة واحدة مما قالت ، وخيل الى أنها تتحدث معى بدافع من العطف فحسب .. ولكنها تخفى الاحتقار الذى تكنه لى فى قرارة نفسها . وكنت أستشف هذا الاحتقار وهذا العطف المهين فى كل كلمة من كلماتها ، وكل نظرة من نظراتها ..

وكانت قبلته لا تزال تحرق وجنتى .. ولم استطع ان اتحمل عذاب التفكير فى زوجى وولدى . وفى غرفتى ، مكثت بمفردى وانا احاول ان اتأمل موقفى .. وبدت لى فكرة بقائى وحدى امرا يثير الفزع . ولم اتناول الشاى الذى قدم الى ، واتخذت بسرعة مذهلة قرارا بالسفر فى نفس الليلة بالقطار الى مدينة هايدلبرج كى ألحق بزوجى ، دون أن أدرى لماذا .. !

ولما جلست مع خادمتى الخاصة فى مقصورة القطار الخالية ، اخذت أستنشق الهواء المنعش من النافذة المفتوحة ، فبدأت أثوب الى نفسى واتمثل ماضى ومستقبلى على نحو اكثر وضوحا . وفجأة بدت لى حياتى الزوجية ـ منذ يوم رحيلى الى بطرسبرج ـ بصورة ملأت ضميرى بالوخز والندم !

***

وتذكرت لاول مرة مشروعاتى وبداية حياتنا فى الريف ، وكذلك وجهت لنفسى هذه العبارة للمرة الاولى : « كم كانت مسرات سيرج عظيمة فى ذلك الحين ! » . واحسست بأننى مخطئة ومذنبة فى حق زوجى . وقلت أسأل نفسى : « ولكن لماذا لا يمنعنى هو ؟ ولماذا يخفى مشاعره امامى ؟ ولم يتجنب اى محاولة لتصفية الموقف ؟ ثم ، لماذا يهيننى ؟ »

نعم .. لماذا لم يكن سيرج يستخدم سلطان حبه معى ؟ أم تراه لم يعد يحبنى ؟ .. وسواء كان سيرج مخطئا أم لا ، فان قبلة هذا الشخص الغريب لاتزال مطبوعة على خدى ، وكنت لا أزال اشعر

بها . وكلما ازداد القطار اقترابا من هايدلبرج ، اتضحت صورة زوجي أمام عيني ، وازددت رهبة من لقائه . وفكرت في ان اقول له كل شيء .. نعم كل شيء ، وان اغرق وجهي بدموع النـدم ، ولابد ان يغفر لي سيرج .. غير اني لم اكن اعرف ماهو « كـل شيء » هذا الذي ساخبره به .. ولم اكن واثقة كذلك انه سوف يغفر لي ..

وحينما دخلت أخيرا الى غرفة زوجي ، ووقع بصري على وجهه الهادىء الذي لم تفلح الدهشة في ان تزيل عنه هدوءه ، شـعرت بأنني في حالة لست اقوى معها على ان اقول شيئا او اعترف له بشيء ، او اطلب منه الصفح . وكان يجثم على صدري احساس عميق بالندم والغضب

قال سيرج :

ـ ما الذي دفعك الى الحضور ؟ لقد كنت انوى أن الحق بك غدا ! ..

واخذ يفحصني لحظة عن قرب ، وقد بدا مذعورا بعض الشيء ، ثم اضـــاف قائـلا :

ـ ماذا حدث لك ؟ تكلمي ..!

فقلت وانا اغالب دموعي :

ـ لا شيء .. لقد جئت اليك .. لنرحل غـدا الى بيتنـا في روسيا

فظل سيرج مدة طويلة ينظر الى بامعان .. واخيرا قال :

ـ هيا .. قصي على ماحدث لك ..

واحمر وجهي على الرغم مني ، وخفضت عيني .. وخيل الى أن شعورا بالغضب والاهانة يلمع في نظرته . وكنت اخشى الفكرة التي يمكن أن تستحوذ على راسه ، فأحسست بقدرة على كتمـان مشاعري لم اكن اعتقد ابدا انها في وسعي .. واسرعت اقول له :

ـ لم يحدث لي شيء .. وكل ماهنالك ان تملكني الحزن والضيق

لقد كنت بمفردى ، فأمعنت التفكير فيك وفى حياتنا .. كم أخطأت فى حقك منذ وقت طويل ! .. ولكنك الان تستطيع ان تأخذنى معك اينما تشاء !

ورحت اكرر قائلة :

ـ نعم ... لقد اخطأت فى حقك منذ وقت طويل ..

وانهمرت الدموع من عينى من جديد ، فصحت قائلة :

ـ لنعد الى الريف ، ولنمكث هناك الى الابد ..

فقال فى برود :

ـ وفرى على نفسك مئونة هذه المواقف العاطفية ياصديقتى .. ومن الخير ان نذهب الى الريف لان المال يعوزنا بعض الشىء . ولكن لا تحلمى بالبقاء فى الريف الى الابد ، اذ أننى اعـرف انك لا تستطيعين أن تمكثى فيه فترة طويلة !

ونهض لينادى الخادم ، وهو يختتم حديثه قائلا :

ـ هيا اشربى قدحا من الشاى ..

وكنت أتخيل ما يفكر فيه بشأنى .. وشعرت بالاهانة من نظراته التى كانت تنم عن الشك والخجل . كلا .. انه لايريد أن يفهمنى .. بل ولا يستطيع ان يفهمنى !

وتركته بعد ان أخبرته بأننى ذاهبة لرؤية طفلى ، فقد كنت اتوق لان اكون بمفردى حتى استطيع ان ابكى .. ابكى .. ابكى ..

الفصل التاسع

صراع من أجل الحب

شتاء كئيب

دبت الحياة من جديد فى بيت نيكولسكى ، بعد أن ظل باردا خاليا فترة طويلة .. ولكن لم يعد يعيش فيه كل من كانوا به من قبل ، اذ ماتت حماتى وأصبحت انا وسيرج منذ ذلك الحين وجها لوجه ..

والآن ، لم تعد الوحدة فقط هى كل ماكان يلزمنا ، بل انها أصبحت مصدر حرج لنا كذلك ..

وانقضى الشتاء بالنسبة الى على نحو سيىء ، خاصة واننى كنت مريضة ، ولم تتحسن صحتى الا بعد أن وضعت ابنى الثانى . واستمرت علاقتى بزوجى علاقة صداقة باردة ، مثلما كانت أيام حياتنا فى مدينة بطرسبرج ، ولكن كل شىء فى قصرنا الريفى : الجدران ، وقطع الاثاث ، والارضيات ، كان يذكرنى بسيرج الذى فقدته !

كنا وكأن بيننا هوة سحيقة لا سبيل الى عبورها .. وكان يبدو كمن يريد أن يعاقبنى عن خطيئة ارتكبتها .. وكنت أتمنى ان تتاح لى فرصة كى استسمحه واطلب منه الصفح والمغفرة ، ولكن كيف يطلب المرء الصفح دون أن يعرف الخطأ الذى ارتكبه ؟ انه كان يعاقبنى عن طريق عدم الاهتمام بأمرى ، فلم يعد يعطينى نفسه ، ولم يعد يفتح لى قلبه وروحه مثلما كان يفعل فى الماضى . وكان لا يخبر أحدا بما يدور فى قلبه .. وكأنما صار انسانا بلا قلب !

وأحيانا كان يجول بخاطرى أنه يتظاهر بذلك كى يعذبنى .. أما شعوره القديم نحوى فلا يزال كما هو .. وكان يحدث أن اجتهد فى اثارته كى يكشف لى عن هذا الشعور القديم ، ولكنه

كان يتهرب دائما كلما حاولت التفاهم معه بصراحة !

***

وخيل الى انه يشك فى اننى اخفى شيئا عنه ، وأنه يخشى ان يظهر لى مشاعره .. وكان هذا امرا يبعث على السخرية منه . وكانت نظراته وسيماء وجهه تفصحان عن رغبته فى أن يقول : « اننى أعرف كل شيء ، وكل الذى تريدين قوله .. اننى اعرف جيدا انك تتحدثين بطريقة وتتصرفين بطريقة اخرى » وكنتأشعر بالاهانة فى البداية بسبب خوفه هذا من ان يكون صريحا .. ولم أعد أستطيع بدورى أن اقول اننى احبه ، أو أطلب منه انيشاركنى الصلاة ، أو أناديه ليستمع الى الموسيقى التى أعزفها . وكان يشعرنى بأن قواعد معينة للسلوك تسود علاقتنا طبقا لاتفاق عرفى بيننا !

كان كل منا يعيش فى ناحية .. سيرجغارقفىأعمالهومشغولياته التى لم أعد أشعر بالحاجة أو الرغبة فى مشاركته فيها ، وانابفراغى الذى لم يعد يحزننى أو يجرح مشاعرى كما كان يحدث فى الماضى . أما الطفلان ، فكانا لايزالان صغيرين ، ولم تستطععاطفتنا المشتركة نحوهما أن تستعيد الروابط التى كانت تربط بين قلبينا ..

وأثناء ذلك حل الربيع فجأة .. وجاءت ماشا وسونيا لتمضية فصل الصيف فى الريف ، ولما كنا نقوم ببعض الاصلاحات فى بيت نيكولسكى ، فقد ذهبنا للاقامة فى بيت بوكروفسكى ، الذى كان على الدوام منزلنا القديم ، بشرفته الفسيحة وغرفة مائدته التى لاتغلق ، والبيانو الموضوع فى الصالة المضيئة ، وغرفتى القديمة ذات الستائر البيضاء ، وأحلامى وانا فتاة شابة .. تلك الاحلام التى يبدو اننى قد نسيتها ..

وكان بالغرفة سريران ، ينام فى أحدهما نيكولاى الصغير الذى كنا نسميه « كوكوشا » تدليلا ، وفى الآخر ولدى ايفان الصغير الذى كنا ندلله « بفازيكا » . وكنت اذهب الى هذه الغرفة لابارك

كوكوشا ذا الوجنتين الكبيرتين ، وأتأمل فازيكا البدين الذى تطل ساقاه من اللفة . وكنت بعد أن أقبلهما اظل واقفة مدة طويلة وسط هذه الغرفة الهادئة .. وفجأة كانت كل ذكريات شبابى المنسية تطل على من أركانها الاربعة ومن خلفستائرها ، وتغنى لى أغنيات الطفولة القديمة .. !

ماذا أصبحت هذه الذكريات ؟ وماذا أصبحت تلك الاغنيات الجميلة ؟ لقد حدث ماكنت لا أجرؤ حتى على تخيله ، واصبحت احلامى حقائق معقدة غامضة ، وحياتى صعبة ثقيلة الوطأة لاطعم لها ولا لذة فيها .. ومع ذلك ، بقيت جميع الاشياء من حولى كما كانت فى الماضى تماما .. اليست هذه نفس الحديقة التى ترى من خلال النافذة ، ونفس الشرفات والممرات والمقاعد ؟ اليس هذا نفس تغريد البلبل الذى ينبعث من فوق الربوة عند مياه البركة ونفس الازهار التى لازالت مزهرة كما كانت فى الايام السابقة ؟ ومع ذلك ، كان كل شىء قد تغير فى نفسى تغيرا بشعا !

وكنت وماشا لا نزال نتحدث فى هدوء ، كما كنا نفعل من قبل ونحن جالسان فى غرفة الجلوس . وحينما كنتاتحدث عن سيرج كانت ماشا تقطب حاجبيها ، ويصفر لونها ، ولم تعد عيناها تلمعان بالامل والسرور ، وانما تعبران عن حزنعميق ، ومؤاخاه لى وعطف على . وكنا لانحلم ونحننتحدث عنه كما كنا نفعل فى الماضى وانما كنا نحكم الان عليه ، ولم نعد نعجب بسعادتنا أو نرغب فى أن نتحدث عنها ونعلنها على العالم بأسره .. بل كنا نتهامس كالمتآمرات ، وكانت كل منا تسأل الاخرى عشرات من المرات : لماذا تغير كل شىء ؟ لماذا أصبح كل شىء حزينا هكذا ؟

وظل سيرج كما هو .. لم يطرأ عليه شىء الا أن ازداد عمق الثنية التى تقسم جبينه ، وكذلك عدد الشعرات البيضاء على جانبى رأسه ، وكان هناك غيم يغطى دائما نظرته المتبهة العميقة . ومن ناحيتى كنت لا ازال كما انا .. فقط لم يعد يوجد فى نفسى

حب أو رغبة ، كما لم أعد أشعر بالحاجة الى ارضاء نفسى . وبدا لى حماسى الدينى السالف ، وحبى القديم ، وحياتى العائلية السابقة .. كل هذه وغيرها بدت لى اليوم امورا بعيدة للغاية . ولم أكن أفهم ماكان يبدو لى حينذاك مشرقا وجميلا ، ولا كيف يجد الانسان السعادة فى العيش من أجل الاخرين .. ولماذا أعيش من أجل الآخرين بينما لا أريد العيش من اجل نفسى ؟

وكنت قد أهملت الموسيقى تماما فى الوقت الذى ذهبت فيه الى بطرسبرج .. ولكن منظر البيانو القديم أعاد الى الميل الى الموسيقى ..

***

ومرضت ذات يوم ، فمكثت وحدى فى البيت ، وكانت سونيا وماشا قد ذهبتا الى بيت نيكولسكى لرؤية الاصلاحات الجديدة . فجلست أمام البيانو لاشغل نفسى بالعزف فى انتظار عودتهما ..

وبدات فى العزف ، ولم ألبث أن استغرقت فيه .. ولم يكن هناك أحد يسمع أو يرى .. وكانت النوافذ التى تطل على الحديقة مفتوحة ، والانغام الحزينة العميقة تدوى فى أرجاء الغرفة . ولما فرغت من عزف الجزء الاول من المقطوعة ، نظرت بغير وعى منى — وبحكم العادة — الى الركن الذى كان سيرج يجلس فيه لينصت الى عزفى . ولكنه لم يكن هناك ، وكان المكان مشغولا بمقعد لم يتغير وضعه منذ زمن طويل . ولمحت على حافة النافذة شجيرات ورد ظهرت بوضوح فى أشعة الشمس الغاربة ، وكانت الرطوبة تتسلل من خلال النوافذ المفتوحة ..

واتكأت على آلة البيان ، وغطيت وجهى بيدى ، واستغرقت فى الاحلام . ويبدو اننى قد بقيت هكذا مدة طويلة .. اتذكر فى الم ذلك الماضى الذى ولى بغير امل فى العودة ، والحاضر الذى يبعث فى نفسى الخجل . واخيرا رفعت راسى فى فزع ، واخذت اعزف نفس المقطوعة من جديد حتى لا استغرق مرة أخرى فى التفكير . ومع

ذلك ، كنت أحدث نفسى قائلة : « يا الهى ! .. اغفر لى ان كنت أذنبت ، وأعد الى نفسى كل ماكان يجمل روحى ، وعلمنى مايجب على أن أفعله ، وكيف يجب ان اعيش »

وسمعت صوت عجلات عربة تسير فوق العشب أمام سلم الشرفة ، ثم وقع اقدام مألوفة تصعد الدرج فى هدوء ، ولم تلبث أن توقفت . ولم يوقظ صوت هذه الاقدام التى أعرفها جيدا نفس المشاعر التى كان يوقظها فى نفسى فيما مضى .. وحينما انتهيت من العزف ، بدات الاقدام سيرها من جديد ، ثم شعرت بيد توضع فوق كتفى ..

قال سيرج :

ـ يا للفكرة الطيبة التى جاءت بك الى هنا لتعزفى هذهالمقطوعة!

واضاف يقول حينما لم يسمع اجابة :

ـ الا تتناولين الشاى ؟

وهززت راسى علامة النفى ، دون ان التفت الى الخلف حتى لا يلاحظ امارات الاضطراب التى كانت بادية على وجهى ..

واستطرد سيرج يقول :

ـ انهما على وشك أن تحضرا .. لقد جن جنون الحصان ففضلتا أن تعودا سيرا على الاقدام ..

فقلت :

ـ اننا سننتظرهما ..

وانتقلت الى الشرفة وأنا آمل أن يلحق بى هناك .. ولكنه استفسر عن الطفلين ثم ذهب لرؤيتهما .. ولكن نبرات صوته الطيب الحلو ازالت من نفسى فكرة أن كل شىء قد ضاع بغير رجعة وقلت لنفسى : « ماذا يمكن ان أشتهى اكثر من ذلك ؟.. انهطيب ووسيم ، وزوج مثالى ووالد ممتاز .. ولست أدرى أنا نفسى ما الذى ينقصنى »

وجلست فى الشرفة على نفس المقعد الذى جلست فيه يوم

تفاهمنا المشهود على الزواج . وكان قرص الشمس قد أوشك ان يختفى وراء الافق ، والظلام قد بدأ يسود المكان .. وكانت الرياح قد خفت حدتها والازهار تنفث فى الجو رائحة ذكية نفاذة ..

وحاولت عبثا أن أهدىء نفسى .. وأخيرا نزل سيرج وقال وهو يجلس الى جوارى :

ــ يخيل الى أن الدنيا ستمطر ، وأن ماشا وسونيا ستغرقهما مياه المطر ..

فقلت :

ــ نعم ..

ثم ساد بيننا صمت طويل ..

وعلى الرغم من سكون الرياح ، لم تكف الغيوم عن الاقتراب من الارض بسرعة .. وفجأة سقطت قطرة مطر كبيرةعلى ارضالشرفة، وتلتها قطرة اخرى فوق حصى ممر الحديقة .. ولم يلبث المطر ان انهمر كالسيل ، وهو يحدث صوتا عميقا ثقيلا .. وكانت أصوات البلابل والضفادع قد تلاشت ، فلم يعد يسمع غير هدير المطر ..

وكنا نستطيع أن نميز فى وضوح قطراته الكبيرة التى تتساقط فى الهواء ، وكان هناك عصفور قد اختفى تحت غصن جفت أوراقه فى مكان ما بالقرب من الشرفة ، وكان يغرد نغمتين لا تتغيران . ثم نهض سيرج من مكانه ، وبدا عليه أنه يريد أنيرحل فقلت أساله وانا احتجزه الى جوارى :

ــ الى أين انت ذاهب ؟ .. ان الجو هنا جميل للغاية !

فقال :

ــ يجب أن أرسل مظلة وحذاءين برقبة الى سونيا وماشا

فقلت :

ــ ليس هذا ضروريا لان المطر سينقطع فى الحال ..

ووافقنى على ذلك .. وبقينا معا بالقرب من سور الشرفة الرطب ، وكنت متكئة بيدى على السور وأمد رأسىخارجالشرفة،

فبلل رذاذ المطر المنعش شعرى ورقبتى

وأخيرا ، كف المطر عن السقوط .. وعادت البلابل الى غنائها من جديد وهى مختبئة خلف كتل الاوراق التى تلمع تحت ضوء القمر . وانحنى سيرج على سور الشرفة ، ثم قال وهو يتخلل شعرى بأصابعه :

ـ ما أجمل الحياة ..!

وأثرت هذه المداعبة البسيطة فى نفسى تأثيرا يشبه العتاب ، حتى شعرت برغبة فى البكاء .. بينما استمر سيرج فى حديثه قائلا :

ـ ماذا يريد الرجل أكثر من ذلك ؟ .. اننى سعيد فى هـذه اللحظة ولا شىء ينقصنى ..

وقلت أفكر فى نفسى : « انك لم تقل لى ذلك حينما كان مثـل هذا الكلام يسبب لى السعادة .. ومهما كانت سعادتك كبيرة كنت تقول لى حينئذ انك تريد المزيد . وهانتذا الان تبـدو هادئا ومسرورا ، بينما نفسى مفعمة بنـدم قد لا يمكن ازالته ، وبدون تريد أن تنهمر ! »

ولكننى أجبته قائلة :

ـ ان الحياة طيبة بالنسبة الى كذلك .. ولكننى حزينة لانها طيبة نحوى .. اننى أحس بأن شيئا ما ينقصنى ، وأرغب دائما فى شىء آخر . وعلى الرغم من ذلك ، فكل شىء هنا طيب وهادىء للغاية ! فهل يمكن الا يمتزج فى نفسك أى حزن بهذه المتع التى منحتها لك الطبيعة ؟ .. كأن تندم مثلا على شىء ماف ماضيك

ورفع سـيرج يده التى كان يضعهـا على راسى ، ولاذ لحظة بالصمت .. ولم يلبث أن قال وكأنه يستجمع ذكرياته :

ـ نعم .. لقد حدث لى ذلك أيضا فيما مضى وخاصة فى أيام الربيع . وكنت أقضى ليالى بأكملها أحلم بالرغبات وأعدد الامال .. ويا لجمال تلك الليالى ! .. حينئذ كان كل شىء أمامى ، والآن

أصبح كل شيء خلفي ، ولكنني الان مسرور بالواقع ..!

وقطع سيرج كلامه ، ثم اردف يقول بعد لحظة :

ـ والواقع الذى أعيش فيه هو الكمال بالنسبة لى ..

نطق سيرج بهذه العبارة الاخيرة فى ثقة وعدم اكتراث ملآ نفسي بالالم ، وكنت مقتنعة بانه صادق فيما يقول .. فقلت أسأله :

ـ اذن فأنت لم تعد ترغب فى اى شيء ؟

فأجابني قائلا وقد أدرك حقيقة شعوري :

ـ ليس هنـــاك مســـتحيل !

ثم أضاف يقول وهو يضع يده من جديد على راسى :

ـ انظرى كيف بللت راسك .. انك تغارين من أوراق الشجر والعشب الذى بلله المطر ، وتريدين أن تكونى العشب وأوراق الشجر والمطر فى آن واحد .. اما انا فأتمتع برؤية هذه الاشياء فقط ..

فقلت له وأنا أحس بثقل تزداد وطأته على قلبى :

ـ ألا تندم على شيء فى الماضى ؟

وأخلد الى الصمت مرة أخرى واخذ يحلم ، وخيل الى انه يريد أن يتحدث بصراحة ، ولكنه قال أخيراً في اقتضاب :

ـ كلا ..

فصحت أقول وأنا اثبت عينى فى وجهه :

ـ الا تندم على الماضى ؟

فقال :

ـ كلا ! .. انني لا اباركه ، ولكننى لست نادما عليه ..!

قلت :

ـ ألا تتمنى اذن أن يعود الماضى ؟

فقال وهو يشيح بوجهه ناحية الحديقة :

ـ اننى لا ارغب فى ذلك مثلما لا ارغب فى ان ينبت لى جناحان .. ان هذا ليس ممكنا ..!

ـ الا تريد أن تعيد بناء الماضى ؟ أو توجه اللوم الى او الى نفسك؟

ـ كلا .. لقد سار كلّ شيء على خير ما يرام

فقلت وانا امسك بيده كى ارغمه على الالتفات نحوى :

ـ انصت الى !.. يجب ان تنصت الى .. لماذا لم تصارحنى بما كنت تريده منى حتى أستطيع ان أعيش وفق هواك ؟ ولماذا منحتنى حرية كنت اسىء استعمالها ؟ .. لماذا كففت عن تعليمى وتوجيهى

واستطردت اقول بصوت كان يزداد قوة ، ويعبر عن الغضب البارد أكثر مما يعبر عن الحب الماضى :

ـ لو انك اردت ذلك .. اعنى لو انك وجهتنى توجيها آخر لما حدث اى شيء على الاطلاق ..

فقال وهو يلتفت نحوى فى دهشة :

ـ وما الذى حدث ؟ ان شيئا لم يحدث ابدا ..!

ثم عاد يقول وهو يبتسم :

ـ ان كل شيء على ما يرام .. على ما يرام تماما ..

وفكرت اقول فى نفسى والدموع تكاد تطفر من عينى : « أمن الممكن انه لم يفهمنى ؟ أو انه لم يشأ ان يفهمنى ؟ »

ولكننى قلت له فجأة :

ـ بما اننى لم ارتكب اى ذنب فى حقك ، فلا يمكنك أن تعاقبنى بعدم اكتراثك وحتى باحتقارك .. اما ما حدث ، فهو اننى اراك تنتزع منى كل غال وعزيز دون اى خطأ من جانبى ..

فصاح يقول وكأنه لم يفهم ما قلت :

ـ ماذا تقولين يا صديقتى ؟

فقلت :

ـ دعنى انتهى اولا ممـا أريد ان اقول .. لقـد نزعت منى كل ثقتك وحبك ، وحتى احترامك ، لمجرد اننى كففت عن الاعتقاد بأنك لم تكن تحبنى بعـد ما حـدث بيننـا .. آه ! يجب على الاقل ان اصارحك ولو مرة واحدة بما يعذبنى منذ مدة طويلة .. هل كنت مذنبة لاننى لم اكن اعرف الحياة ولانك تركتنى اكتشفها بمفردى ؟ وهل أنا الان مذنبة فى الوقت الذى تبتعد عنى دائما متظاهرا بأنك لا تفهمنى او تفهم ما أريد ، بينما قد فهمت أخيرا ما يلزم المـرء فى هذهالحياة ... والان ، وقـد انقضى على نحـو عام وأنا اكافح كى اعود اليك ، هـل تريد ان تسـير الامور بحيث لا توجه اللوم الى نفسك أبدا بخصوص اى شىء ؟ هل تريد ان تلقى بى من جديد فى هذا النوع من الحياة الذى سيجر الشقاء على نفسى ونفسك !

فقال يسألنى فى فزع ودهشة :

ـ وما الذى يدفعك الى الظن بأننى أريد ذلك ؟

قلت :

ـ ألم تقل لى بالامس اننى لا أجد الراحة هنا ، وأن علينـا ان نذهب من جديد الى بطرسبرج لتمضية فصل الشتاء ، وهىمدينة اشعر الان بالبشع كلما فكرت فيها ؟

واضفت أقول :

ـ لقد تجنبت الحديث معى بصراحة ، ولم تقـل لى اية كلمـة صريحة جميلة مع انه كان يجدر بك أن تمد لى يد المسـاعدة .. وبعد ذلك ، حينمـا اسـقط ، سـوف توجه الى اللوم على هـذا السقوط ! ...

فقال فى برود وقسوة :

ـ كفى .. كفى .. ان الذى تقولينه غاية فى السـوء ، وهو يكشف عن استعداد سيىء نحوى ..

فقاطعته قائلة :

ـ يبدو انك تريد ان تقول انني لا احبك ! هيا قلْ ذلك ! ... قله اذن !..

وبللت الدموع عيني ، فجلست على مقعد وغطيت وجهي بمنديلي محاولة أن أمنع الدموع الغزيرة التي كانت على وشك ان تنهمر على وجنتي ، وفكرت قائلة في نفسي : « هكذا يفهمني اذن ؟.. لقد ضاع كل شيء ، وانتهى حبنا السابق ! »

ولم يقترب مني مواسيا ، فقد كان مجروح الشعور مما قلت له ، ولكنه لم يلبث أن قال بصوت هادىء جاف :

ـ لست أعرف كيف توجهين الى اللوم الا اذا كنت تعتقدين انني لم اعد احبك كما كنت احبك في الماضي ..

فتمتمت أقول من تحت منديلي :

ـ كما كنت تحبني في الماضي ؟!

وبللت دموع المرارة منديلي ، ولكنني قلت اخيرا :

ـ اننا في هذا .. كلانا والزمن ، نتقاسم الجرم بالتساوي .. ان كل وقت يناسبه وجه للحب ..

فقال بعد لحظة من الصمت :

ـ اذا كنت تحبين أن أحدثك بصراحة ، فسأخبرك بالحقيقة كلها . لقد قضيت ليالي بأكملها لا يغمض لي جفن في السنة التي عرفتك فيها .. كنت أفكر فيك وابني حبي بنفسي .. ونما ذلك الحب وترعرع في قلبي . وفي مدينة بطرسبرج ، قضيت ليالي بشعة بأكملها وانا أحاول أن أحطم هذا الحب الذي كان مصدر عذابي . ولم أستطع تحطيمه ، ولكنني تمكنت على الاقل من تحطيم ما كان يعذبني فيه . وأخيرا هدات ، واستمر حبي لك .. ولكنه حب اخر ..

فقلت :

ـ هل تسمى هذا العذاب الاليم حبا ؟ لماذا اذنت لي بأن أعيش

فى المجتمع الراقى ما دمت تعتقد انه مجتمع فاسد ؟

ـ ولكن المذنب ليس المجتمع الراقى يا صديقتى ..

ـ ولماذا اذن لم تستعمل سلطتك على ؟ لمـاذا لم تمنعنى رغم انفى ؟ لمـاذا لم تقتلنى ؟ ان ذلك خير من أن أفقـد كل ما يكون سعادتى .. لقد كان هذا أفضل بالنسبة لى ، ولم يكن هناك داع للخجل ..

وبكيت مرة اخرى وانا اغطى وجهى بمنديلى. وفى هذه اللحظة، دخلت ماشا وسونيا الى الشرفة فى مرح وقد بلل المطر كل ثيابهما، ولكنهما كانتا مرحتين للغاية.. وكفتا عن الضحك حين وقع بصرهما علينا ، وغادرتا الشرفة على الفور ..

***

ومكثنا صامتين بعد خروجهما فترة طويلة ، ولما اسـتنزفت دموعى شعرت بالاسى يخف عن قلبى . ونظرت اليه فوجـدته جالسا وقد اتكأ برأسه على يديه ، وبدا كما لو كان يريد ان يجيب على نظرتى بشىء ، ولكنه اكتفى بأن تنهد فى الم ، واتكأ برأسه من جديد على يديه ..

واقتربت منه وابعدت يديه .. وحينئذ التفت الى وقال وكأنه يبحث عن الكلمات التى يتفوه بها :

ـ نعم يبـدو انكن ـ معشر السـيدات ـ لابد ان ترفعن كأس الاستهتار حتى شفاهكن قبل أن تستطعن تذوق الحياة ، وانتن فى ذلك لا تصدقن ابدا تجربة الاخرين . فى ذلك الوقت ، لم تكونى قد توغلت بعد فى عالم الميوعة والاغراء واظهار الرقة ، فتركتـك تغمسين نفسك لحظة فى هذا العالم ، ولم يكن من حقى ان امنعك من ذلك لمجرد أن ساعات الهوى ونزوات شبابى انقضت ـ بالنسبة الى ـ منذ زمن طويل ..

قلت :

ـ اذا كنت تحبنى ، فلماذا اذن تركتنى أعيش وسط هذا الجو المشبع بالميوعة ؟

فقال :

ـ لانه لم يكن من الحكمة أن تصدقينى ، وكان لابد من أن تختبرى هذا الجو بنفسك ..

قلت :

ـ لقد كنت تفكر بعمق كبير ، وهذا معناه انك لم تكن تحبنى .. وساد الصمت بيننا مرة أخرى ، واخيرا قال وهو يقف فجأة :

ـ لقد قلت هنا منذ لحظة كلاما قاسيا . ولكنه الحقيقة .. نعم ، انه الحقيقة ..

وبعد أن تمشى لحظة فى ارجاء الشرفة ، وقف امامى وأضاف قائلا :

ـ نعم .. لقد كنت مذنبا .. لقد كان يجب الا آذن لنفسى بأن أحبك ، او ان احبك ببساطة اكثر ..!

فقلت فى تواضع وخجل :

ـ لننس كل شىء يا سيرج ..

فقال بصوت خفت حدة جفائه بعض الشىء :

ـ كلا .. ان ما ينتهى لا يمكن ان يعود ، والمرء لا يرجع ابدا الى الوراء ..

فقلت وانا اضع يدى على كتفه :

ـ ولكن .. لقد عاد كل شىء يا سيرج ..

فأمسك بيدى وضغط عليها قليلا ، ثم ابعدها عن كتفه وهو يقول :

ـ كلا .. اننى لم أذكر الحقيقة حينما ادعيت اننى لا اندم على الماضى . والواقع انى اندم على حبك الماضى وابكى عليه . اننى ابكى على هذا الحب الذى لم يعد يستطيع ان يعيش اليوم بصورة

اكثر قوة . من المسئول عن كل ذلك ؟ لست ادرى .. قد يكون الحب لا يزال موجودا ، ولكنه لم يعد كما كان . ان مكانه لا يزال يملأ قلبى .. ولكنه مهشم وبلا طعم ، ولم تتلاش الذكرى والعرفان بالجميل . ولكن ..

نقاطعته قائلة :

ـ لا تتحدث هكذا .. فلنبعث هذا الحب كاملا من جديد مثلما كان فى الماضى ...

ونظرت فى عينيه مباشرة ، ثم اضفت قائلة :

ـ هل يمكن ذلك ؟..

كانت عيناه صـــافيتين وهادئتين ، وبدات احس بأن هدفى من الحديث مع سيرج لم يعد بعيد التحقيق . وكان يبتسم ابتسامة هادئة جميلة تشبه ابتسامة الشيوخ .. قال :

ـ انك لا تزالين صغيرة السن ، وانا رجل عجوز .. ولم أعــد املك ما قد تريدين البحث عنه ..

واضاف يقول وهو لا يزال يبتسم :

ـ لماذا يخدع المرء نفسه ؟

كنت صامتة الى جواره ، وكنت أشعر بالهدوء يعود الى نفسى رويدا رويدا ..

قال سيرج :

ـ ينبغى الا نحاول ان نزور الحيــاة ، كما لا يجب ان نكذب على انفسنا . ومن فضل الله علينا أن لم يعد هناك مايعكر علينا حياتنا او يثير الغضب فى نفوسنا .. لقد سبق لنا ان استمتعنا بكل ما كنا نريد ، وقد ظفرنا بنصيب وافر من السعادة

***

واشار سيرج بيده الى المربيــة التى كانت تقترب منا ، وكانت

واقفة الى جوار باب الشرفة حاملة ولدنا فانيا بين ذراعيها ، ثم اختتم حديثه قائلا وهو ينحنى على راسى ويقبلها :

ـ لمن يجب ان نجتهد فى شق الطريق ؟.. لطفلينا .. هـذا ما يجب ان نفعل يا صديقتى العزيزة ..

لم يكن الذى يقبلنى رجلا محبا وانمـا كان صـديقا قديما .. وكانت رطوبة الليل المشبعة بعبير الزهور تهب من نهاية الحديقة وتزداد جمالا وقوة ، وكانت هناك اصوات بعيدة منتشرة فى الهواء تعقبها فترات هدوء عميق ، والنجوم تتكاثر فى السماء ..

ونظرت الى سيرج ، فشعرت بهم ثقيل تخف وطأته عن كاهلى، وكنت اشبه ما أكون بانسان يشعر بالراحة بعـد ان انتزعوا منه عضوا مريضا كان يذيقه العذاب . وأدركت على الفور فى وضوح ان عاطفتى التى كانت تسيطر على خلال تلك الفترة من حياتى قد اختفت بلا عودة .. بل لقد تلاشت ايضا هذه الفترة نفسـها من حياتى ، واصبحت عودتها شيئا مستحيلا ومؤلما وكريها على نفسى

وقال سيرج فى رفق :

ـ اظن انه قد حان موعد تناول الشاى ..

وذهبنا معا الى غرفة الجلوس .. وصادفت المربية مع ماشـا أمام باب الغرفة ، فأخذت طفلى بين ذراعى وغطيت قدميه الصغيرتين العاريتين وضممته بشـدة الى صـدرى وقبلته ، وحينئـذ حرك ذراعيه وهو نائم تقريبا ، ثم فتح عينين بدت فيهما الحيرة كما يفعل المرء حين يحاول ان يتذكر شيئا ، ولم يلبث أن لمع فيهما بريق من الذكاء وابتسم ابتسامة عريضة

واحسست بخمول لذيذ يشـيع فى اعضـاء جسمى وانا احمل طفلى فى حنان محاولة الا أسبب له الالم ، ورحت أكرر قائلة :

ـ انك ملك لى .. انك ملك ..

واقترب زوجى منى ، وغطى وجه الطفل ، ثم عاد فكشفه من

جديد وهو يقول مداعبا الطفل باصبعه تحت ذقنه :

ـ يا ايفان سيرجييفيتش !

وغطيت وجه الطفل مرة اخرى ، اذ لم اكن اريد ان ينظر اليه شخص آخر سوانا ، ونظرت الى زوجى فالفيت عينيه تضحكان وتنظران الى دائما ، وكانت هذه اول مرة اشعر فيها بالسرور وانا اتأملهما منـــذ زمن بعيد

وفى اليــوم نفسه ، انتهت قصة غرامى مع زوجى .. وظلت العاطفة القديمة قائمة فى قلبى ومعها تلك الذكريات العزيزة التى لم يعد من الميســور أن نحياها من جـديد .. لقد نشأ فى قلبى حب جديد لابنائى ووالد أبنائى . وكان هذا فاتحة حياة جـديدة تكتنفها سعادة من لون مختلف ..

وحتى هذه اللحظة ، لم استنفد بعد هذه السعادة ، وانا الآن مقتنعة تماما بأن الســعادة الحقيقية للمراة تكمن فى بيتها واولادها والمسرات العائلية النقية ..

انتهى